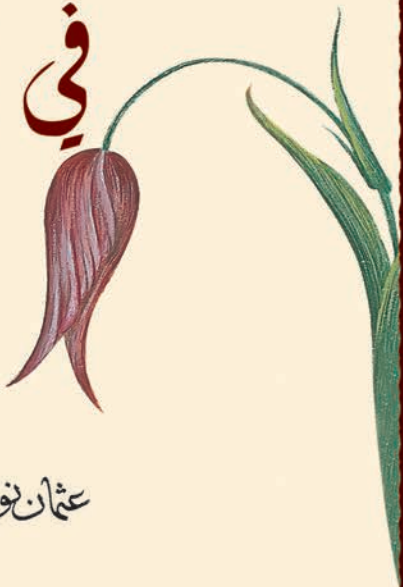
من حديقة الفؤاد

السِّر في المحبَّة



عثمان نوري طوباش

دار الأرقم



إسطنبول١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٤م

إسطنبول ١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٤م
دار الأرقم
اسم الكتاب باللغة التركية: MUHABBETTEKI SIR
ترجمة: محمد عز الدين سيف
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
الطباعة : مطبعة الأرقم
ISBN: ٩٧٨-٦٢٥-٤٤٠-٨٧٥-٥
Language : Arabic

العنوان:

Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

من حديقة الفؤاد

السِّر
في المحبة

عثمان نوري طوباش

مُقَدِّمَة

الحمد لله سبحانه وتعالى حمدًا طيبًا كثيرًا على أن رزقنا نحن عباده العاجزين لذةَ الإيمان وطمأنينته، والصلاة والسلام على سيد الخلق الذي كان وسيلة لخروج الناس من الظلمات إلى النور، سيدنا محمد ﷺ.

أما بعد، فقد جعل الله تعالى سرًّا خاصًّا للمحبة إذ خلقَ الوجودَ به، فحيثما انعدمت المحبة كان الزوال، وحيثما وُجِدَت كان الكمال. يقول مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي):

"أوحى الله ذو الكلام بسرٍّ إلى السحابة، فانسكبت الدموع من عينَها انسكاب الماء من القِربة، وأوحى بسرٍّ إلى الوردة، فجمِّلها بألوان وروائح، وأوحى بسرٍّ إلى الحجر، فجعله العقيق في المنجم، وأوحى بسرٍّ إلى الإنسان، فرفَع شأن مَن حفظ السر إلى الأبد".

وهذا السر إنما هو سر المحبة. لذلك كان فوزُ الإنسان بالسعادة في الدارَين بنيل رضا الله تعالى وشفاعة نبيِّه الكريم حقيقةً واضحة مخفيَّة في عظمة السر في المحبة. وفي القلوب التي أدركت هذه الحقيقة شوقٌ كشوق جذع النخلة التي بكت محبةً للنبي الكريم ﷺ. وهذا الشوق يرتقي بالإنسان فيغدو إنسانًا

كاملًا يليق بمقام "أحسن تقويم" ويوجِّهه إلى الاستقامة، أي الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى به. والثبات على الاستقامة يكون بالحرص على صحبة الصالحين والصادقين، فصحبتهم تُوازِن بين الروح والجسد، أي تكفل غلبة سلطان الروح على جارية الجسد، وتوصِل القلب الذي هو محلُّ نظر الله إلى الطمأنينة بالله بتخليصه من أسر الجسد وأهواء الدنيا الفانية. وهذه الطمأنينة حبٌّ لا ينضب.

ثم يُعامَل العبد وفقًا لإخلاصه في كل مرحلة في رحلته إلى الخلود وهو ينضج يومًا بعد يوم في تجليات الإيمان والامتحان.

وينبغي للعبد في رحلته هذه أن يكون بين الخوف والرجاء اللذَين هما مفتاح رحمة الله تعالى، وينتصر قلبه على أهواء نفسه وغوائلها، وهذا ما يجعله يعبد ربه بقلب سليم حي مطهَّر من الذنوب والآثام وبعيد عن الغفلة. ومراقبة النفس لا سيما في الغضب تقوِّي القلب.

وبذلك لا يعبأ مَن عرَّفهم النبي ﷺ في قوله: "ليس الشديد بالصرعة..." باللذَّات المؤقتة مدركين المراد الإلهي مما بين الحياة والموت، ويأتون الأعمال الصالحة، ويعيشون حياةً بالعلم والعبادة والخدمة. وتعيش القلوب بطمأنينة بعد تجميل صورة الموت شوقًا للوصال مع الحق، لأن مثل هذا العمر سيملأ القلوب بعشق الله. أي يغدو الموت كأنه ليلة عرس، ويضيق طائر الروح بقفص الجسم لأنه يعيش متحمسًا للحظة الوصال في كل لحظة. ويتلذذ

العبد بالرزق المعنوي من مائدة الرحمن بالدخول من نافذة السر في الليل بعد عيش النهار كما يرضى الله تعالى وبالرزق الحلال والعمل الصالح. ولذلك لا يقلق على رزقه الفاني، ولا يحتاج إلى شيء من هذه الدنيا. وتغدو الروح مثل سحابة تنشر الرحمة حيثما كانت بتوكل وتسليم. ويجعل الأسرة جنةً في الدنيا وينشر الأمن والبركة في المجتمع.

والذين يتربون في جنة الأسرة هذه يطلبون دائمًا الحق ويخدمونه في عالَم الامتحان الذي يتصارع فيه الخير والشر، والنور والظلام. ويؤدون ما عليهم من واجبات يفرضها عليهم القرآن الكريم بقلوب مليئة بالروحانيات، ويقرؤون الحِكَم والأسرار والحقائق العظيمة في هذا الكون الكبير الذي يرونه كتابًا صامتًا، وبذلك يكونون كالمرآة الصافية التي تعكس ما لديهم من طمأنينة وسرور.

وإذا كان العبد في مثل هذه الأحوال السامية، فهو كالقرآن الحي. وما الدعوة إلى إعلاء كلمة الله التي بدأت في غزوة بدر إلى يومنا هذا إلا لنيل هذه الأحوال السامية.

وهذا باختصار ما ذكرناها في هذا الكتاب الذي نضعه بين أيديكم بعنوان: (السر في المحبة)...

وقد استشهدنا في عرضنا لمحتوى هذا الكتاب بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، واستفدنا من ذكر أحوال أولياء الله وأخلاقهم وحسن أدبهم.

والله تعالى أكرمَ عباده الذين أحبهم بنِعَم عظيمة مختلفة، فبلغ بعضهم ما بلغه شاه نقشبند في معرفته لله تعالى، وجعل بعضهم منبعًا للمحبة الربانية مثل العارف بالله والشاعر يونس أمره، وجعل بعضهم مصدرًا للبلاغة والحِكَم مثل مولانا جلال الدين الرومي. وجعل الله تعالى جميع أوليائه على اختلاف مشاربهم متحلِّين بمعرفة الله وأكرمَهم للناس كافة.

وبناءً على هذه الحقيقة استفدنا من سيرة أهل الله في حدود الفيوضات التي نالوها، فمِلنا إلى سعي بعضهم وإلى عشق آخرين، واستمعنا إلى عذوبة صوت جماعة منهم، وشممنا طيب أزهار جماعة أخرى. وسعينا إلى جمع لالئ الحكمة من أفواه نفر، أي إننا استفدنا من أحوال أهل الله ومن أقوالهم.

وأكثرُ ما انتفعنا به كان من كتاب (المثنوي) لمولانا جلال الدين الرومي الذي بلغ الذروة في أحواله وأقواله، فهذا الكتاب كتابٌ خالدٌ ألَّفه مولانا جلال الدين ترجمانًا لما يدور في قلوب أولياء الله، وهو كتابٌ يذكر الأسرار الإلهية، ويعبِّر عن مظاهر قدرة الله، ويصف لنا الكون ودقائقه بأسلوب بديع حكيم، وقد قال عنه مولانا جلال الدين الرومي:

"المثنوي طريق لمَن أراد الوصول إلى الحقيقة والاطلاع على أسرار الله. المثنوي شفاء للقلوب الطاهرة. المثنوي يُذهِب الحزن، ويُعين على فهم القرآن الكريم، ويحسِّن الطباع".

نسأل الله تعالى أن يرضى عنه وعن أمثاله من أوليائه، ويُفيدنا من علمهم كما ينبغي.

اللهم أكرِم عبادك الذين عاشوا حياتهم في خدمة القرآن إكرامًا عظيمًا، واجعلنا نحيا في سبيل نيل رضاك، ونتنفع من فيوضاتك وبركاتك! اللهك أكرِم قلوبنا بالإيمان ونور القرآن، وعقولنا بالأسرار والحِكم، وضمائرنا بالرأفة والرحمة والمحبة.

آمين!

عثمان نوري طوباش

إسطنبول -أسكدار/ ٢٠٢٤



السّر في المحبة

السر في المحبة

يقول وليٌّ من أولياء الله: كنتُ أسير في واد كبير مقفر، فلقيتُ فيه راعيًا يصلي في خشوع عظيم وتحمي الذئاب أنعامه، فعجِبتُ، وانتظرت فراغه من الصلاة، ثم قلت:

"أيها الراعي، كيف أمست الذئاب تحمي أنعامك؟ كيف انقلبت العداوة والافتراس في قلوبها إلى صلح ومحبة؟"

فقال الراعي الذي بدا أثرُ السجود على سيماه:

"أيها المسافر الغريب، إن السِّرَّ في صداقة هذه الذئاب للأنعام متعلق بصحبة الراعي مع المالِك الحقيقي لهذا القطيع. أي إنَّ ما تراه سرٌّ في المحبة".

فنفهم من هذا القول أن المحبة سِرٌّ لا مؤثِّر أقوى منه في ترقية قلب الإنسان وسموه. وإذا غدت هذه المحبة عشقًا، حرقَت بنورها جميع أهواء النفس ورغباتها، ورفعَت حُجُبَ الظلام، وارتقت بالقلب إلى أعلى الدرجات.

وقد نال الترابُ قطرةً من بحر نور الله وجماله، فرُفعَ شأنه بين المخلوقات الأخرى، حتى إن الله تعالى خلق أشرف مخلوقاته

منه. وجعلَ الله سبحانه وتعالى الذي خلق المخلوقات بمحبته كلَّ مخلوق دليلًا على كماله وعظيم إبداعه. وصار وجود الإنسان مظهرًا عظيمًا من مظاهر المحبة، فليس المُراد من التراب وهذا العالَم المُزخرَف السهول والوديان الخضراء والصحاري العظيمة والجبال الشاهقة، بل المُراد الإنسان جوهرُ الكون، وإبداعُ صنع الله، ومنبع المحبة التي كانت وسيلة لخلق التراب والمخلوقات كلها. فتشريفُ الإنسان على قدْر حفظه للغاية من خلقه.

والمحبةُ سببٌ لخلق الكون والمخلوقات، لذلك كانت المحبة ميلًا فطريًّا في كلِّ كائن حي. فحملُ أنثى العقرب صغارها على ظهرها ثمرة من ثمار المحبة. وقد بلغت هذه المحبة أعلى الدرجات في الإنسان أشرف المخلوقات.

محبة الله

إذا أحبَّ الإنسان مخلوقًا، نالَ نتيجة هذا الحب وفقًا لأهلية هذا المخلوق بالحب، من أجل ذلك لا يصل القلب إلى كمال المحبة إلا إذا كانت المحبة لله سبحانه وتعالى، وإلا لهث وراء أهواء فانية ورغبات زائلة، وكان مآل حياة صاحبه إلى الخسران. أي إن الإنسان يرتقي في الروحانيات على قدْر حصره حبَّه الفطري الطبيعي في قلبه بالله وبما يحبه الله.

إن الابتلاءات التي يتبليها الله الإنسانَ متعلقة بطريقة استعماله للمحبة، لذلك زرع الله في الإنسان ميولًا إلى الخير وميولًا إلى

الشر. وأكرم الله تعالى الإنسانَ من صفاته الثلاثة العظيمة وهي الوجود المطلق، والجمال المطلق، والخير المطلق، وابتلاه بثلاث صفات مناقضة هي الفناء المطلق، والقبح المطلق، والشر المطلق. يقول الله تعالى:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.[1]

فهذان القطبان المتناقضان قائمان في الإنسان طوال حياته!

ولكن ينبغي أن يعلم الإنسان أن الابتلاء العظيم ميلُه إلى القطب السلبي. فمَن مال إليه، ذهبت بصيرته فلا يُعجَب إلا بأعماله، وهذا ضعف وغفلة عظيمة تمنعه من رؤية عجزه البشري، وهو مِن أشد الأمراض فتكًا بروحه، وهو الكِبر الذي يحجبه عن رؤية عظمة خالقه وقدرته ويوهمه بقدرة "الأنا" بين طيات نفسه.

والمعنى الحقيقي وراء قول: "موتوا قبل أن تموتوا" هو تجنبُ الوقوع في فِخاخ الصفات السيئة والنجاةُ من دوَّامات النفس. ولكن ليس السبيل إلى هذه الغاية قتل النفس بل التحكُّم بها.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"إذا كان الماء تحت السفينة، أعانها، وإذا كان داخلها، أهلكها".

وكذلك النار التي تشغِّل السفينة، إذا بقيت في الموقد، دفعت السفينة، وإذا خرجت من الموقد، أحرقتها.

١ الشمس، ٨.

فكلما غلبَ العبدُ ميوله السيئة، اقترب من مرضاة ربه، والتوفيق إلى ذلك لا يكون إلا بتوجيه المحبة إلى الله وفقًا للاستعداد في القلب. ولكن ثمة أخطار كثيرة للإنسان إذا وجَّه محبته لله تعالى فجأة، فقد يحترق القلب كأنه يُعرَّض لطاقة كهربائية عظيمة، فيقلبُ عيشة صاحبه رأسًا على عقب، وخير مثال لهذا الأمر من سيرة سيدنا موسى عليه السلام، إذ خاطب الله تعالى بصفة "الكلام" سيدنا موسى في طور سيناء، كلَّمه تعالى كلامًا بلا حروف ولا كلمات ويعجز الإنسان عن استيعاب حقيقته. وعندئذ وأمام هذه الجذبة المعنوية غاب سيدنا موسى عليه السلام عن وعيه بالمحبة العظيمة في قلبه، وأصرَّ على رؤية ربه، فقال له ربه: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[٢] ولمَّا أصرَّ موسى، أخبره ربه بأنه ناظر إلى الجبل من وراء حجاب. فلمَّا تجلَّى الله تعالى بِذرة من نوره على الجبل، جعله دكًّا، فخرَّ موسى صعقًا، ولمَّا أفاق، تاب إليه.

فنفهم من هذا التجلي العظيم الذي أزال طاقة نبي من أولي العزم أنه لا بد من التدرج في المحبة، ولا بد من تدريب يقوِّي ميل القلب إلى حب الله. وهذا يقتضي تدرجًا في القرب من روحانية أهل الله والابتعاد عن أهواء النفس. وبذلك وحده يزداد القلب ميلًا إلى المحبة، ويتطهر من النفسانيات، وينجو من العلائق الفانية، ويغدو كالمرآة البرَّاقة تنعكس عليها المحبة الإلهية.

٢ الأعراف، ١٤٣.

إن حبَّ الوالدَين والزوج والأولاد وما يملكه الإنسان من نعم إحسانٌ وكرمٌ من الله تعالى عليه. ولكن يجب أن يكون هذا الحب من أجل الله وفي سبيله. وينبغي ألا يكون القلب أسيرًا لحب هذه الأمور الدنيوية، لأن مَن يحب "الحُسنَ المطلَق" أي الله صاحب الجمال المطلَق لا يحب الجزء. فمَن أحب الجزءَ، حُرِمَ من الكل، أي مَن يهوى الدنيا، لا ينال حب المولى.

وقد عبَّر مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحال في قوله:

"مَن مالَ إلى الدنيا كان كالصيَّاد يريد أن يصيد الظل، فكيف يكون الظل مُلكَه؟"

"أراد صيَّاد أن يصيد ظل طائر، فحارَ الطائر على الغصن من أمره".

فالكيِّس الذي يريد حسن العاقبة يعلم أن الحدَّ من رغبات النفس الفانية والأهواء المؤقتة لا بد منه لتوجيه المحبة إلى المقصود الإلهي وتحقيق الغاية من الخلق.

إن الجمال المُطلَق جمالُ الله تعالى. وكلُّ شيء جميل نشاهده معُجَبين به ما هو إلا ذرة من انعكاس جمال الله تعالى عليه.

وخير مثال لهذه الحقيقة حبُّ مجنون لليلى، فلو أن قلب مجنون ظل متعلِّقًا بليلى، لصارت له وثنًا، ولكن كان لليلى دورٌ مؤقتٌ عنده. فبعد أن ارتقى مجنون بقلبه درجة ليكون مُخاطبًا بحب

الله لم يبقَ لحب ليلى عنده أثر. فأثبت مجنون قدرته على الكف عن حب ليلى وميل قلبه إلى المولى.

فجميع أنواع المحبة مشروعة وفقًا لمَا يهواه القلب. وبِحسب المرء أن لا تكون هذه المحبات مستقرًا مطلقًا لقلبه فيغتر بها ويقع في الخسران الشديد. والقلب كالتراب الخصب يكمل طريقه ببَرَكة ما يناله من أنواع المحبة. والتهلكة هنا أن يميل القلب إلى مَا لا يليق بمحبته، والأسوء من ذلك أن يتعلق به. فلو أن مجنونًا علق بحب ليلى، لما كانت له أي قيمة، ولمَا كان له أي ذكر مثل المجانين المجهولين الذين ضاعوا في حب فان.

لمَّا أُلقيَ سيدنا يوسف عليه السلام في البئر، لم يهلكه الله تعالى هناك. بل جاء مسافر عطشان، فألقى دلوه يريد الماء، فتعلَّق يوسف بالحبل وخرج، فنسي المسافر عطشه، وتعجب من الجمال الذي يأخذ الألباب أمامه، ولكن هذا الغافل لم يرَ الجانب المعنوي من هذا الجمال، فتعلَّق بظاهره وباعه بثمن بخس دراهم معدودة، فكانت حاله كحال مَن تعلَّق بليلاه ولم يبلغ حبَّ مولاه...

مع أن نسيان الرجل الماء والبئر برؤية جمال سيدنا يوسف كان فرصة كبيرة له، فكان عليه أن يحرق جميع المحبات الفانية برؤية تجلي جمال الله، ولكنه لغفلته وعظيم جهله لم يرَ إلا النفع الدنيوي من بيع سيدنا يوسف، فضاع ما في يده من كنز عظيم هباءً.

إننا نسعى هنا إلى توضيح حقيقة أن نجعل الاستفادة القصوى من المحبة والعشق ديدنًا لنا. فتجاوز مراحل المحبة من غير التعلق بأي منها فرصةٌ لكثير من الناس، غير أن المفلحين في هذ الأمر هم مَن ينالون الغاية المنشودة بإرادتهم ظاهرًا وسَوْق القَدَر باطنًا. فهم يقضون أعمارهم الفانية من أجل الوصول إلى مرضاة الخالِق مدركين أن الطرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأن النهاية هي المآب إلى الله، أي "الفناء في الله" كما يفنى النهر إذا صبَّ في البحر، ونتيجة هذا الفناء "البقاء في الله".

وينبغي أن نعلم بأن حدود العقل مُعيَّنة، وما وراءها جنون. وأما حدود القلب فلا نهاية لها، ونقطة سكينتها "الفناء في الله" و"البقاء في الله".

وقد عبَّر مولانا جلال الدين الرومي عن حبه لله في حال "الفناء في الله" و"البقاء في الله" وعن حقيقة أن نار الحب في قلبه لن تخمد حتى بعد موته إذ قال:

"افتحْ قبري بعد موتي وانظرْ كيف يتصاعد الدخان من كفني بالنار التي تحترق في داخلي! إن الذي يُرعِبك من الموت قفص بدنك. فإذا كسرتَ هذا البدن بالحب كما تكسر المحار، فسترى أن الموت مثل لؤلؤة".

ومما يميِّز أولياء الله أنهم يضطربون بعشق الله. وقد قضى مولانا جلال الدين الرومي عمرَه باحثًا عن العُشَّاق الحقيقيِّين

الذين يحترقون في حال العشق التي ذكرها في قوله، وبيَّن رغبته هذه بقوله:

"أحتاج إلى عاشق تقوم القيامة من اللهيب في باطنه، ويجعل بحرارة قلبه حتى النار رمادًا!"

والحُبُّ ضربان: مجازي وحقيقي...

فأما الحب المجازي حُبٌّ مخلوق من المخلوقات، وأما الحب الحقيقي فهو تعلق القلب برب المخلوقات ذي الجمال والكمال.

إن الذي ينير قلبه بالحب الحقيقي يرى تجليات جمال الله دائمًا ويشاهد مظاهر قدرة الله كل حين، أي يكتشف حقيقة "أحسن تقويم" المكنوزة في نفسه. لأنه لا يجد الألوان والروائح المجازية التي نتعلق بها إذا رأينا شيئًا جميلًا، فهو يتجاوز هذه الأمور الدنيوية، لأنه وصل إلى معرفة الله، وكفَّ عن النقوش في قشور العلوم الدنيوية، وبلغَ الحقيقة، وصار يشاهد آفاق عظمة الله تعالى.

وليس الحجاب الكبير بين العبد وربه البُعدُ المادي الظاهر، بل شعور النفس بأنه مخلوق بعيد عن خالقه.

لذلك قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[٣] مذكِّرًا العبد بالجوهر السامي في نفسه.

فلنا أن نقول إن الله أنعم على الإنسان بخزائنه وأسراره.

٣ الحجر، ٢٩.

فإذا بلغ جوهر الإنسان إلى الكمال بالحب، انطلق القلب إلى عالَم الأسرار الإلهية، فتظهر حقائق الأشياء، ويتضح سر الإنسان والكون، ويحل على العبد تجليات القلب السليم.

وإذا بلغ العبد هذا النضج المعنوي، رُفِعَ حجاب الغفلة بينه وبين ربه، ونال حظًّا من سِرِّ قول: "موتوا قبل أن تموتوا"، وخرجت الدنيا وحبها ولذتها من قلبه، وعندئذ تلذذ القلب بلذة التقرب إلى الله تعالى.

فهذه الأحوال لدى أهل الله دلائل على توجه العبد إلى ربه بمحبة عظيمة تزيد ببعده عن كل شيء سواه، أي هي تجلي قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾**.[٤]

محبة رسول الله ﷺ

إن نبع المحبة والرحمة الوحيد الذي يحمل العبد إلى بحر محبة الله تعالى إنما هو سيدنا رسول الله ﷺ، فمحبته محبةُ الله تعالى، وطاعته طاعة لله تعالى، وعصيانه عصيان لله تعالى. فوجوده عليه الصلاة والسلام ملجأ محبة للبشر. ويرى العارفون أن سبب الخلق المحبةُ المحمديَّة، وكلُّ ما في الكون مسخَّر لنور الوجود محمد ﷺ.

وقد خلقَ الله تعالى "النور المحمدي" قبل خلق البشر، فهو عليه الصلاة والسلام إحسان عظيم من الله للكون والبشر.

٤ البقرة، ١٦٥.

والإنسان يعجز عن إدراك حقيقة رسول الله عليه الصلاة والسلام إدراكًا كاملًا لضعفه، ولا تكفي الانطباعات من هذا العالَم لوصفه، وتعجز الكلمات عن الحديث عنه. ومثَل مَن يريد أن يدرك النور المحمدي كما ينبغي كمثل مَن يريد أن يحمل ماء البحر في كأس.

إن رسول الله عليه الصلاة والسلام "عبدٌ" بلا شك كما نذكر في كلمة التوحيد، ولكن ينبغي ألا نسعى لفهم عبوديته كما نفهم عبودية غيره من الناس، فإدراكنا أمام الحقيقة المحمدية كإدراك طفل للحوادث الميتافيزيقية. لأن سيدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام "رسولٌ" اختاره الله من بين عباده، رسولٌ اكتملت شرائع الأنبياء بالشريعة التي جاء بها.

تُذكَر أسماء الملوك في الخُطَب وتُكتَب فيهم المدائح ويُدعَى اللهُ كي يدوم ملكهم، ولكن ذكرهم يزول مع مرور الأيام. وأما الأنبياء وورثتهم من الأولياء فسلطانهم قائم وذكرهم دائم، وتبقى أسماؤهم منقوشة في القلوب، وكلُّ واحد منهم دليل إلى المولى تعالى، ضحَّى بالفاني من أجل الباقي، فخلَدَ ذكره. وهم الذين قال الله تعالى عنهم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[٥]

٥ يونس، ٦٢.

فاسمُ كلِّ سلطان وحاكم يُمحَى ويزول ويبقى اسم سيدنا محمد ﷺ خالدًا في السماء وفي الأرض وفي القلوب. وينبغي أن نحفظ الشأن الرفيع لقلوبنا بذكره عليه الصلاة والسلام بمحبة لا بذكر السلاطين والحُكَّام.

قال الله تعالى في كتابه العزيز في شأن المشركين:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.[٦]

فنفهم من هذه الآية وجود بشارة عظيمة ومكافآت كبيرة للمؤمنين الذين يحملون في قلوبهم محبة رسول الله ﷺ. ونفهم أيضًا أن المؤمن كلما امتلأ قلبه بمحبة رسول الله ﷺ، اتبعدَ عن عذاب الله وغضبه. وهذا وعد من الله تعالى، أي إنه تعالى لن يعذبنا ولن يهلكنا إنْ كان رسول الله ﷺ في قلوبنا.

إن المرآة تعكس الأشياء والألوان والأشكال التي لها أجسام، وأما مرآة قلوب الأولياء والصالحين فتعكس الفيوضات والبركات والأدعية بالنور القادم من محبته عليه الصلاة والسلام.

كان رسول الله ﷺ أغلى من الأرواح وأعز من النفوس، وكان الصحابة الكرام الذين تربوا على محبته في حال عشق تعجز الكلمات عن وصفها، وخير مثال لذلك نسيبة بنت كعب ﵂، إذ كانت من

٦ الأنفال، ٣٣.

الصحابيات اللواتي كن في غزوة أحد، فكانت تحمل الماء إلى الجرحى، فلما انهزم المسلمون، انحازت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت تباشر القتال، وتذب عن رسول الله ﷺ بالسيف، وترمي بالقوس، وجُرِحت في مواضع من جسمها، وقد قال عنها رسول الله ﷺ:

«ما التفتُّ يوم أحد يمينًا ولا شمالًا إلا وأراها تقاتل دوني».[٧]

فكان اسم نسيبة من الأسماء الخالدة في التاريخ الإسلامي بمدح رسول الله ﷺ لها بعد إقدامها وشجاعتها العظيمة في القتال انطلاقًا من محبتها لرسول الله ﷺ.

وعن عائشة ﵂ قالت:

"جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾[٨]". [٩]

٧ ابن حجر، الإصابة، ٨، ٤٤٢.

٨ النساء، ٦٩.

٩ الطبراني، المعجم الأوسط، ١، ١٥٢.

ولمَّا توفي رسول الله ﷺ، اشتد حزن الصحابة، وتساءلوا كيف تحتمل قلوبهم العاشقة التي كانت تراه كل يوم فراقه في الدنيا، ولم يستطع عبد الله بن زيد ﷺ احتمال هذا الهجران فرفع يديَه إلى السماء ودعا: "اللهم أعمني حتى لا أرى شيئًا بعده" فعُمي.[١٠]

إن الكلمات تعجز عن وصف محبة الصحابة لرسول الله ﷺ وعشقهم له، والأمثلة كثيرة منها:

عن أنس ﷺ قال:

"لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل".[١١]

وكان الصحابة الكرام يتبرَّكون بأشياء رسول الله ﷺ وشعره، ويُروَى أن خالدًا بن الوليد فقدَ قلنسوة له يوم اليرموك فطلبها حتى وجدها، وقال: اعتمر رسول الله ﷺ، فحلق رأسه، فابتدر الناس جوانب شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلا رُزِقت النصر.[١٢]

والأمثلة على محبة رسول الله ﷺ في الماضي والحاضر كثيرة لا حصر لها، منها أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني حينما بنى خط الحجاز لتسهيل سفر الحجَّاج إلى الحرمَين، أمرَ بجعل

١٠ القرطبي، تفسير، ٥، ٢٧١.

١١ مسلم، الفضائل، ٧٥.

١٢ السيوطي، الخصائص الكبرى، ١، ١٧٠.

الأماكن التي استراح فيها النبي عليه الصلاة والسلام في سفره إلى الشام محطَّات في هذا الخط، وبذلك أوصل هذا السلطان الخطَّ الحديدي إلى المدينة بمحبة عظيمة.

ومن الأمثلة أن حاكم المدينة المنورة العثماني فخر الدين باشا أمرَ العمال المكلَّفين بترميم الروضة الشريفة باستعمال مطارق من خشب لدق المسامير ووضع قطعة مطاطية بين المطرقة والمسمار، خشيةً من إفساد السكنية والطمأنينة في الروضة الشريفة، وما كان دافعه إلى هذا الأمر إلى قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.[١٣]

ومحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام منزَّهة عن أي خطر للميل إلى أي مخلوق سوى الله تعالى، لذلك كان لا بد من محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام بقوة المحبة الكاملة في القلب. ولقد كانت السيدة فاطمة ﵂ أسوة في هذه المحبة، إذ لم يُرَ وجهها ضاحكًا بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام.[١٤] وقد وقفت على قبر أبيها وفي يدها قبضة من تراب فشمَّته وأنشدت:

---

١٣ الحجرات، ٢.

١٤ ابن سعد، الطبقات، ٢، ٣١٢.

ماذا على مَن شمَّ تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا

صُبَّت عليَّ مصائب لو أنهـا صُبَّت على الأيام صرن لياليا[١٥]

وعبَّر الشيخ محمد أسعد أربيلي، وهو أحد المشايخ الأجلَّاء في التاريخ الحديث، عن فيوضات المحبة في قلبه للنبي ﷺ في قوله:

يا حبيبي إن الربيع الذي ظهر بتجلي جمالك نار

والودر نار، والبلبل نار، والسنبل نار، والتراب والشوك نار

وذلك النور البراق مثل الشمس حرَقَ العاشقين كلهم

فالقلب نار، والصدر نار، وهاتان العينان اللتان تبكيان بعشقك نار

وأنَّى لهم غسل شهيد العشق بكل هذا النار؟

والجسد نار، والكفن نار، والماء العذب الذي سيغسل الشهيد نار

إن أفضل مظاهر محبة رسول الله ﷺ اتباعُه. يقول الله تعالى: **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**.[١٦]

واتباع رسول الله ﷺ قولًا وفعلًا وحالًا شرطٌ، لأن "المُحِبَّ لمَن يحب مطيع". ومحبة النبي ﷺ أساس محبة الله تعالى. فالطريق الوحيد الذي يبلغ صاحبه إلى مرضاة الله ينطلق من محبة النبي ﷺ.

١٥ ابن الجوزي، الوفا، ٢، ٨٠٣، ٨١٣؛ القسطلاني، المواهب، ٢، ٥٠١.

١٦ النور، ٥٦.

فالروحانية في العبادات، والظرافة في المعاملات، والنزاهة في الأخلاق، واللين في القلوب، والملاحة في الوجوه، والسلاسة في الألسنة، والرِّقة في الأحاسيس، والبصيرة في النظرات، كلها لمعات تنعكس من محبة رسول الله ﷺ.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي:

"تعالَ أيها القلب، إنما العيد الوصال مع سيدنا محمد، لأن نور الوجود من نور جمال ذلك المخلوق المبارك".

فمحبة رسول الله ﷺ أعلى محبة يصلها إليها العبد في سبيل محبته لله تعالى، لأن الله تعالى قد جعل حدودًا لقدرات البشر حتى الإدراك، والذات الإلهية ما وراء تلك الحدود...

محبة أولياء الله وأهل الإيمان أجمعين

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.[١٧]

فتبيِّن الآية الكريمة مَن على المؤمن أن يحب، وهم: الله تعالى، ورسوله ﷺ، والعباد الصالحون وأهل الإيمان.

فتوجيه المحبة لله تعالى يقتضي أولًا محبة نبيه الكريم، ثم أولياءه العِظام، ثم تتسع هذه المحبة لتشمل كل المخلوقات الذين

١٧ المائدة، ٥٥.

يرضى الله عنهم كلٌّ على قدر درجته عند الله. فدائرة المحبة هذه شفاء للقلوب ورحمة، وأما المحبة التي تكون خارج هذه الدائرة فتُضعِف المنطقَ الذي تقوم عليه المحبة في هذه الدائرة، لذلك تكون البَرَكةُ في محبة رسول الله ﷺ وأولياء الله، والندامةُ في الدنيا والآخرة في بغضهم. يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«مَن عادَى لي وليًّا، فقد آذنتُهُ بالحرب».[١٨]

ولا بد لكل مؤمن أن ينتبه إلى قوله تعالى في أهل الإيمان: **﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾**.[١٩]

فعلى المؤمنين ألا يخرجوا من دائرة المحبة والرحمة في تواصلهم وعلاقاتهم، فهذا هو السبيل لمحبة الله ونيل رضاه.

إن رفعة شأن أولياء الله لدى المولى سبحانه وتعالى نابع من رأفتهم بالمخلوقات والنظر إليهم بنظر الخالق، إضافة إلى أخلاقهم الحميدة وعبوديتهم الخالصة، ومن أجل ذلك أمرنا الله تعالى بصحبتهم وجعلهم ورثة أنبيائه.

فاللهم أكرمنا بمحبتك ومحبة حبيبك ومحبة مَن تحبهم، ولا تتوفَّنَا إلا وقد أدينا أعمالًا صالحة تكفي لنجاتنا في الآخرة، ونوَّرت قلوبنا بأنوار محبتك يا ذا الجلال والجمال...آمين!

١٨ البخاري، الرقاق، ٣٨.

١٩ الفتح، ٢٩.



نفحات المحبة

من المدينة المنورة

جذع النخلة الباكي

نفحات المحبة من المدينة المنورة

جذع النخلة الباكي

إن المعجزات التي جاء بها الأنبياء الكرام ما هي إلا صدمة تزيل غفلة الإنسان حتى يدرك إنه فان ويسلِّم أمره لخالقه. وهذه المعجزات والخوارق للعادة تُعجِز إدراك الغافلين، وتزيد من يقين المؤمنين. ومن هذه المعجزات تسبيح النباتات والحيوانات والأشياء ربَّها، ومعرفتها لرسول الله ﷺ، وميلها لمحبته.

وقد عُرِضَت هذه المعجزات أمام أعين الناس وقلوبهم عرضًا واضحًا لا شك فيه، ومن أشهرها بكاء جذع النخلة:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإن لي غلامًا نجارًا، قال: «**إن شئتِ**»، قال: فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها، حتى كادت تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت، حتى استقرت، قال:

«**بكت على ما كانت تسمع من الذكر**».[٢٠]

٢٠ البخاري، البيوع، ٢٥.

ويصف مولانا جلال الدين الرومي هذه المعجزة فيقول:

نزل رسول الله ﷺ من المنبر، ومسحَ بيدَه المباركة على جذع النخلة وسألها: "يا جذع النخلة، ماذا تريد؟ لمَ تبكي؟ ما بِك؟"

فبدأ جذع النخلة يقول بلسان حاله وعيناه تبكيان: "يا رسول الله، حرقني هجركَ لي، وملأني همًّا وغمًّا وحسرة وشوقًا. كنتُ الجذع السعيد المحظوظ الذي تستند إليه إذا قمتَ خطيبًا في الناس، والآن تركتني، وصعدتَ منبرًا فصار لك سندًا. فيا رسول الله، أخبرني لطفًا ورحمةً بي، أيُّ مخلوق في الدنيا يحتمل هجرك إياه؟"

فأراد رسول الله ﷺ أن يواسي جذع النخلة فقال:

"يا جذع النخلة، إذا كان أنينك من ألم شوقك، فاطلبْ مني ما تشاء. أتحبُّ أن أدعو الله كي يجعلك شجرة باسقة خضراء تعطي ثمرها للناس أجمعين؟ أو يجعلك غرسة في الجنة، فتخلُدَ فيها طريًّا جميلًا؟"

فطلب جذع النخلة من رسول الله ﷺ طلبًا يبيِّن مدى شوقه إليه، إذ قال:

"يا رسول الله، لا أريد هذا ولا ذاك. إنما لي رغبة واحدة، وهي أن أفنى فيك، فادفني حتى أتخلص من جسدي الفاني. فالشجرة مهما كانت جميلة طريَّة، غذاؤها من الشمس والماء. وأما حياتي فتغذَّت بنور نورانيتك، وذاقت لذة عونك، والدفء بحرارتك، والشوق

إليك. فلا أستطيع بعد اليوم أن أترك هذه اللذة، لذلك أطلب الباقي الخالد. ادفنِّي حتى أحيا فيك وفي نورك فأكون خالدًا".

فأمر رسول الله ﷺ بدفن جذع النخلة.

وقد ذكرَ مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي) نصائحَ استقاها من هذه الحادثة، فقال:

"واعلمْ أن العبد الذي يكرمه الله تعالى لا يعبأ بأنواع المحبة في هذه الدنيا الفانية ويولِّي وجهه إليه تعالى فهو مقصوده".

"أيها الغافل، انظر إلى معجزات موسى وأحمد، كيف صارت العصا حيَّة تسعى؟ وكيف صار جذع النخلة عارفًا فأنَّ؟"

"اشعرْ بحقيقة المحبة من شجرة واعتبِر، ولا تحبس نفسك في أهواء الدنيا. واعلمْ أن السعادة الحقيقية وأسمى المقامات وراء الأبدان. واعلمْ أن السعادة الحقيقية هي بالنجاة من دسائس البدن الفانية وطلب الوصال مع الله".

إذن ألا نعتبر من أن كثيرًا ممَّن لديهم صورة إنسان وقد أُكرِموا بشرف الإنسانية يبيتون أقل شأنًا من الحجر والشجر لأنهم لم يفهموا جوهرهم وحقيقتهم؟

ولا يخفى على أحد أن كلَّ عبد يدعوه الله إليه يعلم أن الدنيا ليست إلا ممرًا لا بد من العبور منه بعز وشرف، ولا يغتر بلذات الدنيا، بل يغدو دليلًا لمحبة الله. ولكن الذين عميت بصائرهم عن

رؤية أسرار الله لا يؤمنون بأن الشجر والحجر قادر على أن ينطق بالحقائق الخفية.

إن النظام الإلهي في الكون ما هو إلا نتيجة أمر الله: "كُنْ". ولو أن الجمادات لم تسمع أمر الله "كُنْ" ولم تدركه، لما كان لتحذير الله أي معنى. ولكن المخلوقات كلها الحية منها والجامدة أُمِرَت بأمر "كُنْ"، وهذا يعني أن أوامر الله لا يسمعها الإنسان فقط، بل حتى الجماد.

أليس اللسان الذي هو قطعة من لحم يعبِّر عمَّا نريده بالكلمات؟ ألا يُشعِرنا بلذة ما نأكل ونشرب؟ إنَّ كلَّ شيء في الكون يسمع ويشعر ويتكلم بلسان حاله. وأما الذين لا يسمعون ولا يشعرون فليسوا إلا الغافلين ممَّن ختمَ الله على قلوبهم.

والشيطان يضع الشك في قلب الغافل، فيملأ هذا الشك وجدانه وإدراكه، فترى عيناه الأشكال ظاهرًا، ولكن تُحجَب عنه معانيها، فيدفعه مع نفسه الأمارة إلى التهلكة.

وانقطاع الغافل عن عالَم الروحانيات يقطع الصلة بين قلبه وبين الله، فيدفعه إلى جهل شديد. لذلك يقل إدراك السائر في حياته بعقله فقط. وأما العالِم العارف الذي لا يكتفي بالنظر إلى ظواهر الأحداث في الكون بل يرى الأسرار في بواطنها فلا يتيه أبدًا في متاهات العقل. وهذه الفريسة والبصيرة فيه وفي أمثاله تُحيِّر حتى الحجر والشجر.

إن الذي عميت عينا قلبه يُضطَر لاستعمال طريق العقل الذي هو مثل عصا الأعمى. وهذه العصا وإنْ كانت تقي صاحبها من الوقوع ولكنها لا تكفل له السير كما يسير المبصِر.

وليس الأعمى مَن عميَت عيناه اللتان في رأسه بل مَن عميَت عينا قلبه، إذ في الدنيا عبادٌ من الخواص مبصرةٌ عيون قلوبهم يرون بها ما لا يراه غيرهم.

ومن أعظم حِكَم الله تعالى أنه لا يرى حِكَمه إلا مَن رأى بعينَي قلبه. فأنَّى لمَن يستعمل طريق العقل فقط أن يفهم حال الجماد وتسبيح الحجر والشجر.

يقول مولانا جلال الدين الرومي على لسان الجمادات:

"أيها الإنسان الغافل، إن الله تعالى وهبنا الحركة والمعرفة مع أننا جمادات. وأعطانا مهارات ليست لدى الأحياء. فلسانك جسم جامد، ولكن ألا يُنطقها الله بالكلمات؟ إذن ألا يدرك الإنسان أن الله إذا شاء، جعل جذع النخلة تنشد شعرًا في الشوق والهجران والحب؟"

لمَّا نظر إبليس إلى آدم عليه السلام، رأى كتلة من طين على هيئة إنسان بدلًا من أن يرى إنسانًا خُلِق من طين، من أجل ذلك لم يسجد له، فهو لم يرَ الجوهر الأصلي في آدم، واغترَّ بهيئته الظاهرة من طين فعصى ربه فطُرِد.

وأبو جهل وأمثاله من مشركي قريش كانوا مثل إبليس الذي ظنَّ الإنسان كتلة من طين، فلم يروا التجليات الإلهية في سيدنا محمد ﷺ.

وقد ذكر مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي) قصة توضِّح غفلة أبي جهل وأمثاله ووعي الجمادات، إذ قال:

(أراد أبو جهل أن يمتحن رسول الله ﷺ يومًا بعقله، فوضع حجارة في يده وجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: "أخبرني ما في يدي. إنْ كنتَ نبيًّا حقًّا وتأتي بأسرار من السماء، فعليك أن تعلم ما هو قريب منك الآن".

فقال رسول الله ﷺ:

«أتريدني أن أخبرك بما في يدك أم يشهد ما في يدك أنني نبي؟ فإنطاقُ ما في يدك أمر يسير أمام قدرة الله، فربي إذا شاء، أحيا الجمادات كلها وأنطقها كالإنسان. وهي في الأصل تفصح بأسرار كثيرة عن قدرة الله وعظمته لأهل القلوب. ولكنك وأمثالك من الغافلين لا تفهمون لسانهم وأحوالهم بلا ريب».

ثم نطقت الحجارة واحدًا تلو الآخر بكلمة الشهادة. ففزع أبو جهل واضطرب، وسقطت الحجارة من يده، وصاح: "كذب، كذب" بدلًا من أن يؤمن لينجو. ثم قال: "ليس على الأرض ساحر أعظم منك سحرًا".

فكان أشد الكافرين لعنًا إلى يوم القيامة بكفره هذا، فطُرِد من رحمة الله إلى الأبد.)

أصاب أبو جهل العمى والصمم... فعمي عن رؤية تجليات الله والنور المحمدي كما عميَ إبليس عن رؤية حقيقة آدم، وظنَّ أن سيد الخلق مثله من لحم وعظم لأن بصيرتَه حُجِبَت بحجاب الغفلة والغضب والكفر.

ووجود أمثاله على الأرض حتى قيام الساعة ما هو إلا من مقتضى عدل الله الذي يحكم العالَم.

عن أنس بن مالك ﷺ، قال: صعد النبي ﷺ إلى أحد ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله، قال:

«اثبت أحد فما عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيدان».[٢١]

وليس الجمادات فقط بل الحيوانات والمخلوقات الأخرى تعرف رسول الله ﷺ، وتحبه وتطيعه. فمن الأحاديث الشريفة التي تنبِّهنا من غفلتنا قوله ﷺ:

«ما بين السماء إلى الأرض أحد إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس».[٢٢]

فكلُّ ذلك يبيِّن لنا أن الأحوال العجيبة التي تظهر على الجماد والنبات لا تنحصر بجذع النخلة الذي وردَ ذكره.

فاللهم أكرمنا بشيء من المحبة التي كانت في جذع النخلة الذي بكى لمحبته لحبيبك!... آمين!

٢١ البخاري، أصحاب النبي، ٦؛ الترمذي، المناقب، ١٨/ ٣٧٠٣.

٢٢ الدارمي، المقدمة، ٤/ ١٨؛ أحمد، مسند، ٣، ٣١٠.



الإنسان الكامل

الإنسان الكامل

خلقَ الله سبحانه وتعالى الإنسان في "أحسن تقويم" وبيَّن ذلك في كتابه الكريم، فالإنسان جوهر هذا الكون، لأنه المخلوق الوحيد الذي نال نصيبًا قليلًا أو كثيرًا من صفات الله، وهذه هي الحكمة التي جعلت الإنسان يُوصَف بأنه "أشرف المخلوقات".

والإنسان متصف بالصفات الجمالية التي تجعله في أعلى عليِّين، وكذلك بالصفات السيئة التي تجعله في أسفل سافلين. وحياة الإنسان مسرح للصراع الأبدي بين قطبَين متعاكسَين. وهذه الحقيقة تجلٍّ للصراع المشابه في "الكون الصغير" الذي يُسمَّى "الإنسان". والذي يجعل الإنسان إنسانًا أن يصل إلى نتيجة في هذا الصراع تجعله يحمي الجوهر الأصيل في فطرته.

فالإنسان الكامل اسم مشترك لمَن تميَّز عن غيره، فهو إبداع في الحسن واللطف، وخلاصة كتاب الكون وفاتحته، ومكان تجلي سِر الخلق.

وجسم الإنسان الكامل مسرح لتجلي الفضائل في قلبه، وأما قلبه فمحل محبة الله وعشقه، وكقصر عظيم لكنز معرفة الله، فقلب الإنسان الكامل بيت الله.

وليس من اليسير فهم الإنسان الكامل ووصفه كما ينغبي.

يقول الملا جامي: "القلب محل نظر الله الجليل الأكبر".

وأقوال الإنسان الكامل حِكم وأسرار، وأفعاله الصالحات من الأعمال. وهو يتأسَّى برسول الله ﷺ، وقلبه إبداع في الخلق، إذ لا يكون الوصال مع الخالق وخلافته في الأرض إلا بقلب سليم.

والإنسان الكامل يستنير بسر قولهم:

"الشريعة قولي، والطريقة فعلي، والحقيقة حالي".

يقول رسول الله ﷺ:

«إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها».[٢٣]

ومن هنا قال بعض من أهل الله:

"في قلب المؤمن مَن لا تسعه السماوات والأرض".

إن الإنسان الكامل مثل فراشة تدور حول الضوء، بلا إرادة لمحبته المولى تعالى، لذلك صار الله عينَه التي يرى بها وأذنه التي

٢٣ الطبراني، مسند الشاميين، ٢، ١٩.

يسمع بها. والمُقدَّر للإنسان الكامل أجملُ ما لديه. وأهواء الدنيا مستحقرَة عنده لأنه ذاق لذة معية الله تعالى.

والإنسان الكامل يشاهد إبداع الخالق في الكون دائمًا، والعالَم والأحداث فيها معارِض للاعتبار. وهو يدرك حال عبوديته إدراكًا حسنًا أمام تجليات الله الظاهرة حوله.

لذلك كان التجاء الإنسان الكامل مستجابًا في أغلب الأحايين، ولا يُرَدُّ دعاؤه. غير أنه لا يطلب شيئًا لنفسه في الأعم لأدب عبوديته ورضاه المطلق بقدر الله، أي لا يذكر نفسه في دعائه. وقلبه يسع الخلقَ كله لأنه مفطور على الرحمة. ويدرك أن النظام الإلهي في الكون نظام دقيق كامل لا تشوبه شائبة وتحكمه الحِكمة.

سأل الشيخ سنبل سنان أفندي مريديه يومًا:

"لو أن الله تعالى أعطاكم ملكوت الكون، فماذا كنتم فاعلين؟"

فدُهِش المريدون من هذا السؤال، فأجابوه من باب حسن أدبهم مع شيخهم، فقال أحدهم: "ما كنتُ أترك كافرًا على وجه الأرض". وقال ثان: "لأزلتُ السوء كله". وقال ثالث: "لأهلكتُ جميع مَن يشرب الخمر".

وكان من بين مريديه مريد بقي ساكتًا، فانتبه إليه الشيخ ونظر إليه وقال: "وأنت يا ولدي، ماذا كنت فاعلًا؟"

فاحمرَّ وجه المريد خجلًا، وأحنى رأسه لمخاطبة الشيخ إياه وقال بصوت منخفض:

"يا سيدي، هل في تدبير الله لهذا الكون عيب أو نقص- حاشاه- حتى أفعل شيئًا؟ يموت مؤمن فيأتي مؤمن مكانه، ويموت كافر فيأتي كافر مكانه. إن نظام الكون يجري بقدرة لا يتصورها بشر، فمَن أنا حتى أقول: أفعل هذا، وأصنع هذا، بعجزي وعقلي المحدود؟"

فأُعجِبَ الشيخ بجوابه، وقال وهو ينظر إليه: "الآن صارت الأمور في مركزها".

وصار يُسمَّى ذلك المريد باسم "مركز أفندي"، فنُسيَ اسمه الحقيقي وهو "موسى مصلح الدين" وصار يُعرَف بهذا الاسم.

إن الإنسان الكامل يحرق ميوله النفسانية كما تحترق الورقة تحت عدسة المكبِّرة لأنه تحت تجليات محبة الله، ويحبُّه الخلقُ طوعًا وقسرًا لأنه يكون في مركز جاذبية نورانية، ولا يقع في دوامة الصفات المذمومة من غرور وكبر وعجب لأنه نجا من كلاليب المديح الفاني. وهو مع الحق تعالى بين الخلق. ويعيش كلمة "التعظيم لأمر الله" و"الشفقة على خلق الله". غير أنه لا يميل إلى الظالمين الجاحدين ومحبتهم لمحبته الله تعالى، ولكنه يرأف بحالهم من شدة رحمته، ويدعو الله لهم من أجل الهداية.

ولا يجد حاجة إلى المال والمُلكِ في الدنيا إلا لإنفاقها. فهو نذر نفسه من أجل معرفة الله، وهو من عباد الله الخواص الذي لا يعبأ بهموم الدنيا، فهو ينظر إلى الدنيا بنظرة ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [٢٤]

ومقصود الإنسان الكامل رضا الله تعالى، فيستوي عنده الطعام اللذيذ والكريه من هذا الجانب، وكذلك لا فرق عنده بين الكثرة والقلة، والبرد والحر، والغنى والفقر، لأنها جميعًا أمور دنيوية.

إن الإنسان الكامل غريب ظاهرًا، ولكنه في قلبه يجلس على عرش عظيم في قصر فاخر، فلا يرى الدنيا إلا قصرًا من رمل، لذلك لا يطلب لنفسه شيئًا من الناس والدنيا.

وهو معتدل في جميع أموره، ويسلك خير الطرق في العبادات. فقد بيَّن رسول الله ﷺ الاعتدال في قوله:

«**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**». [٢٥]

فهو عليه الصلاة والسلام لم يوصِ بالصيام الدائم، وقيام كامل الليل، والرهبنة بالنأي عن الزواج، ولكنه حذر أيضًا من عدم الصيام، والغفلة والوقوع في أسر النوم والحرص على النفسانيات، أي لا إفراط ولا تفريط في أحوالنا.

٢٤ الرحمن، ٢٦.

٢٥ البخاري، النكاح، ١؛ مسلم، النكاح، ٥.

وعلى الإنسان حقوق، منها حق الله في عبادته وشكره، وحق أهله، وحق نفسه. فالإنسان الكامل يدرك هذه الحقوق ويحفظها في اعتدال.

والإنسان الكامل رقيق القلب، يفي بوعده، ولا ينكث بعهده، ولا يُسيء إلى مخاطَبه، وهو عادل في عبوديته لله ومعاملته الناس.

ولا يسيء حتى لمَن أساء إليه، فإن كان المسيء فقيرًا يُحسِن إليه، يبقى يُحسِن إليه ما استطاع، فأفعاله ومعاملاته تكون وفقًا للكتاب والسنة لأنه يتخلَّق بالأخلاق التي أمر الله بها، ولا يطلب إلا رضاه. فهو تعالى يرزق جميع المخلوقات حتى مَن يعصيه.

كان سيدنا أبو بكر ﷺ ينفق على قريب له اسمه مسطح، ولمَّا كان مسطح من الذين افتروا في حادثة الإفك، أقسم أبو بكر على ألا ينفق عليه بعد ذلك. فساءت أحوال مسطح وأهله، ولكن الله تعالى لرحمته بعباده وإنْ عصوه أنزلَ الآية الكريمة التي يقول فيها:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[٢٦]

٢٦ النور، ٢٢.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[٢٧]

فقال أبو بكر ﷺ:

"والله إني لأحب أن يغفر الله لي".[٢٨] ثم دفع كفَّارة يمينه وظل ينفق على مسطح.

أي ظلَّ ينفق على مَن افترى على ابنته العفيفة زوج النبي وأم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ. وهذا مثال واضح يبيِّن عظم فضيلة سيدنا أبي بكر ﷺ وكماله.

إن الإنسان الكامل ينفق إنفاقًا كثيرًا حيثما يجب حتى يبدو مسرفًا، ولا ينفق كثيرًا حيث لا يجب حتى يبدو بخيلًا، ولكنه دائمًا يسعى لنيل رضا الله تعالى القائل في كتابه الكريم:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.[٢٩]

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.[٣٠]

٢٧ البقرة، ٢٢٤.

٢٨ البخاري، المغازي، ٣٤؛ مسلم، التوبة، ٥٦.

٢٩ الإسراء، ٢٦-٢٧.

٣٠ الإسراء، ٢٩.

وقد أحسن عمر بن عبد العزيز فهم هذه الآيات الكريمة، فأنفق ماله ومال أهله- بعد أن رضوا- على المحتاجين واليتامى، فكان قدوة لرعيته، وأسوة حسنة للميسورين، فلم يبقَ في خلافته فقير يأخذ الزكاة.

والإنسان الكامل يراقب نفسه دائمًا، فلا ينشغل بعيوب غيره، ولا يفشي أسرار الآخرين، لأنه يدرك أن الله تعالى ستَّار العيوب.

والإنسان الكامل يعيش حياته مستغنيًا عن لذات الدنيا، فيكون في حال يغبطه الآخرين عليها وإنْ لامه بعض من الناس أحيانًا، فكأن الدنيا كلها خاضعة لأمره.

يقول رسول الله ﷺ:

«مَن كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له».[٣١]

والإنسان الكامل ذو خلق عظيم فلا يغضب على أحد- إلا من أجل الله- ولا يستاء من أحد، لأنه يعيش سر قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.[٣٢]

٣١ الترمذي، القيامة، ٣٠/ ٢٤٦٥.

٣٢ آل عمران، ١٣٤.

وقد عفا جعفر الصادق رحمه الله عن خادمه الذي أوقع الطعام عليه، بعمله بما تقتضيه هذه الآية، بل وأحسن إليه.

وكان الحسن البصري رحمه الله يعفو عمَّن يغتابونه ويرسل إليهم الهدايا ويربيهم بالإحسان إليهم.

والإنسان الكامل يكون في عبادة وإحسان في كل أحواله، فأنفاسه تسبيح، وكلماته لالئ حكمة، وعيناه منبع محبة، إذا رآه غيرُه ذكَر الله، وإذا صحبَه وجدَ لذة معنوية عظيمة، لأن صحبة الإنسان الكامل مليئة بالفيوضات والبركات، وهو ترجمان الحق والحقيقة للتوَّاقين لأسرار الله تعالى.

إن الله تعالى يحب الإنسان الكامل الذي يتخلَّق بالأخلاق التي أمر بها، ويحبِّبه للناس جميعًا. والإنسان الكامل يرشد السالكين في سبيل الله بمحبة وإحسان، ويسعى ويضحي من أجل إخراج مَن حوله من ظلمات أنفسهم إلى أنوار الروحانيات.

والإنسان الكامل كنزُ الأسرار الإلهية، فلا يطَّلع على كماله إلا مَن اعتاد تلك الأسرار، لأن الإنسان الكامل لا يختلف عن غيره من حيث الظاهر، ولكنه من حيث الباطن من عباد الله المكرَّمين، ويتجلى فيه سر أحسن تقويم، وكأنه منبع النور، ولؤلؤة في سلسلة الصالحين.

ولا يفسد بدن الإنسان الكامل في التراب، وآثاره التي هي محصول قلبه تبقى خالدة. فأولياء الله العظام مثل شاه نقشبند

والغزالي ومولانا جلال الدين الرومي رحمهم الله جميعًا ما زالوا يحيون في القلوب وسيبقون أحياء حتى بعد موتنا.

وقد عصم الله تعالى الإنسان الكامل من الخوف والحزن، وأكرمه بالسعادة في الدارين، فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[٣٣]

نسأل الله تعالى أن يكرمنا مما أكرم به أولياءه الكرام، ولا يحرمنا من السير على خطاهم...

آمين!

٣٣ يونس، ٦٢.



«قل: آمنت بالله، فاستقم».

(مسلم، الإيمان، ٦٢)

الاستقامة

الاستقامة

رأى رجل شيخًا يحمل الحطب على ظهره ويستصعب المشي، فقال له:

– يا شيخ، ألا تتوكل على الله الذي يرزقك؟ لماذا تكابد هذه المشقة؟ أليس لك مَن يعيلك؟"

فرفع الحطَّاب الشيخ يديَه ونظر إلى السماء وقال: "يا رب، اجعل هذا الحطب ذهبًا" فصار الحطب ذهبًا.

فلمَّا رأى الرجل هذه الكرامة، قال مندهشًا:

– ولماذا تحمل الحطب وقد بلغتَ ما بلغت؟

فقال الحطَّاب:

– يا بني، إنما أصنع ذلك كي تعلم نفسي بأنني عبد، فلا تخرج من دائرة العبودية، فالقبول عند الله إنما هو الاستقامة في العبودية".

ولذلك يقول العارفون بالله: "أعظم الكرامة الاستقامة".

والاستقامة بمعناها العام السيرُ إلى الهدف دائمًا بلا تردد، وأما في التصوف فهي حفظُ الصفاء في الفطرة. وعندئذ تقترب النفس من الأدب ويقترب القلب من الأخلاق النبوية، وتتكشف الأسرار، ويصبح الله تعالى غاية الغايات، ويفقد ما سواه قوته، وينال المؤمن قلبًا ناضجًا يبلغه درجة الوصال مع الله تعالى.

وخير مثال لهذه الحال سيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، وقد بيَّن الله تعالى صعوبة هذه الحال في أمره نبيه العظيم: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾.[٣٤]

وقد أدرك رسول الله ﷺ صعوبة بلوغ مرتبة الاستقامة كما ينبغي فقال: «**شيَّبتني هود**».[٣٥]

روي أن بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال:

"قد قلت يا رسول الله شيبتني هود، فلمَ قلتَ ذلك؟" فقال عليه السلام: "لقوله تعالى فاستقم كما أمرت".[٣٦]

ووردَ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

"ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشد من هذه الآية، ولا أشق، يعني قوله تعالى: ﴿**فاستقم كما أمرت**﴾".[٣٧]

٣٤ هود، ١١٢.

٣٥ الترمذي، تفسير القرآن، ٥٦، ٦.

٣٦ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣، ٦٤.

٣٧ Elmalılı Tefsîri V ١٨

وقد لخَّص المفسرون هذه الآية بقولهم:

"أيها النبي، كن كما جاء في أحكام القرآن وكن قدوة مشخَّصة في الاستقامة، حتى لا يكون شك فيك! ودعْ عنك كلام المشركين والكفار وفوِّض أمرك إلى الله. واستقم كما أمرك الله في أمورك العامة والخاصة، ولا تحد عن الصراط المستقيم. ومهما كان ثقل الأمر الذي أوحيَت به، فبلِّغه واعمل به. فالله معينك وناصرك".

وهذا العتاب الإلهي في الآية الكريمة عتابٌ لأمة محمد كلها في شخصه عليه الصلاة والسلام. والذي شيَّبه عليه الصلاة والسلام خوفه على أمته من هذا العتاب، فهو عليه الصلاة والسلام كما ورد في القرآن الكريم:

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[٣٨]

فإذا لم يكن طريق يبلغ العبد به الوصال مع الله إلا الاستقامة، فلا أمر أشد وأصعب من الحفاظ على الاستقامة في كل أمر.

ومن أجل ذلك عُرِض هذا الأمر على أمة محمد في سورة الفاتحة في قوله تعالى (اهدِنا الصراط المستقيم) ليقرأها المسلم أربعين مرة على الأقل في اليوم دعاءً وتنبيهًا، وما ذلك إلا دليل على صعوبة أداء الاستقامة كما ينبغي.

٣٨ يس، ٤.

وإذا نظرنا إلى عبارة (الصراط المستقيم) انطلاقًا مما نجد في القرآن الكريم، فالصراط المستقيم يعني سبيل الله، والطريق الصواب، والطريق المستقيم، وكتاب الله، والإيمان وما يتعلق به، والإسلام والشريعة، وطريق رسول الله ﷺ وأصحابه، وطريق أهل السُّنة والجماعة، وطريق الصالحين والشهداء، وطريق السعادة في الدارين، وطريق الجنة.

والصراط المستقيم طريق الخواص من العباد الذين أنعم الله عليهم، وهؤلاء العباد هم الأنبياء أولًا ثم الصدِّيقون والشهداء والصالحون. وأهل الاستقامة هم الذين يسيرون على دربهم من ورائهم.

والصراط المستقيم صراط لا ميل فيه ولا عوج، هو طريق يؤدي إلى الله تعالى القائل في كتابه العزيز:

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [٣٩]

والسير على الصراط المستقيم يعني العبودية لله تعالى كما ينبغي له. يقول الله تعالى:

﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. [٤٠]

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [٤١]

٣٩ الشورى، ٥٣.

٤٠ آل عمران، ٥١.

٤١ آل عمران، ١٠١.

وقدَّ عرَّف الله تعالى الصراط المستقيم في قوله:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[٤٢]

ولا يصل العبد إلى الصراط المستقيم كما ينبغي إنْ لم يجعل محبة الله تفوق محبة أي شيء سواه. ومن أجل ذلك لا بد من معرفة الله، أي معرفة أوصاف ذاته الإلهية. والصراط المستقيم من هذا الجانب هو معرفة الله. لأنَّ مَن يصل إلى معرفة الله وينظِّم حياته كما يقتضيه هذا الاعتقاد، يبتعد عن شرور النفس ودسائس الشيطان، ويعيش طالبًا رضا الله وحده، ويغدو قلبه محلًّا لتجليات الله تعالى.

٤٢ الأنعام، ١٥١-١٥٣.

والعبد في هذه الحال أُذانه تريان وعيناه تبصران، والكون أمامه كتاب مليء بالحِكم.

والمريد إذا لم تكن في أحواله استقامة فجهده يذهب هباءً، ولا تنفعه همَّته، لأن الاستقامة في سبيل الله أعظم كرامة.

والاستقامة تعني الحفاظ على الاعتدال في العبادة من غير إفراط أو تفريط، مع الثبات في سبيل الله. وهي أداء الأمر كما ينبغي على أفضل صورة. مَن يدري كم من المصائب

وقد جاء بعض من الصحابة الكرام إلى رسول الله ﷺ وسألوه الإذن كي ينقطعوا عن كل شيء في الدنيا ويعبدوا الله ليل نهار، فأمرهم رسول الله ﷺ بالاعتدال.

لقد عاش رسول الله عليه الصلاة والسلام حياته كلها في نظام معلوم وعلى قدر طاقته البشرية، كي يكون قدوة لغيره. وأعماله التي عملها بطاقة نور النبوة يعجز غيرها عنها. كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقضي أيامه وهو يراعي حق الله، وحق أهله، وحق نفسه عليه بالراحة، وحق الناس. فنظَّمها أحسن تنظيم وقدَّمها لأمته كي يقتدوا به.

سُئِل عبد الخالق الغجدواني رحمه الله: "هل نعمل ما تطلبه النفس أو ما تكرهه؟" فقال: "من العسير معرفة الفرق بينهما. فالنفس تخدع الإنسان في التفريق بين رغباتها أهي رحمانية أم

شيطانية. لذلك نعمل ما أمرنا الله وننتهي عمَّا نهاناه عنه، وهذه هي العبودية الحقيقة".

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.[٤٣]

لقد بعث الله تعالى الأنبياءَ قدوة للناس حين اشتد الظلم وخضع أكثر الناس للقوة الظاهرة، وكلَّفهم بأمور ثلاثة:

١. تبليغ آياته.

٢. وتعليم الكتاب والحكمة.

٣. وتزكية النفس، أي جعل الناس على الاستقامة.

وكان خاتم هؤلاء الأنبياء سيدنا محمدًا ﷺ.

والصراط المستقيم أي الاستقامة منظومة من الأعمال الصالحة.

والعمل يكون صالحًا بشرطَين:

١. "التعظيم لأمر الله" أي إيفاء أوامر الله بخشوع وتعظيم وكما يليق بها.

٢. "الشفقة على خلق الله" أي الشفقة والرأفة والرحمة بجميع المخلوقات من أجل الخالق.

٤٣ يوسف، ١٠٨.

والاستقامة التأسي برسول الله بجعل محبته في القلب دائمًا، والتخلق بأخلاقه، والعيش في روحانية القرآن والسنة، والبعد عن ملذات الدنيا، والإطلاع على أسرار العبادة والعبودية.

وعلى الإنسان أن يراقب قلبه وباطنه دائمًا كي يعلم مدى استقامته وصدقه، فإذا انحرفت الأعمال عن رضا الله تعالى، فذلك علامة على غياب الخُلق الحسن، وهذا ما يُذهِب ثواب تلك الأعمال.

كان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ حريصًا دائمًا على الإخلاص والحفاظ على الاستقامة في حياته، مع أنه من الصحابة المبشَّرين بالجنة، فعن حذيفة ﷺ، قال:

دخلت على عمر وهو قاعد على جذع في داره وهو يحدث نفسه فدنوت منه فقلت: ما الذي أهمك يا أمير المؤمنين؟ فقال: هكذا بيده وأشار بها، قال: قلت: الذي يهمك والله لو رأينا منك أمرًا ننكره لقوَّمناك، قال: الله الذي لا إله إلا هو لو رأيتم مني أمرًا تنكرونه لقومتموه؟ فقلت: الله الذي لا إله إلا هو لو رأينا منك أمرًا ننكره لقومناك، قال: ففرح بذلك فرحًا شديدًا، وقال: الحمد لله الذي جعل فيكم أصحاب محمد من الذي إذا رأى مني أمرًا ينكره قومني.[٤٤]

٤٤ ابن أبي شيبة، مصنف، ٧، ١٩٩.

ومات رجل من المنافقين فلم يصلِّ عليه حذيفة، فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم، فقال له عمر: بالله، منهم أنا؟ قال: لا، ولن أخبر به أحدًا بعدك.[٤٥]

ولمَّا كان الإمام الغزالي رحمه الله في أوج شهرته بين أهل العلم، تساءل إنْ كان علمه في سبيل رضا الله تعالى أم للشهرة، فاضطرب وترك التدريس وانزوى والتجأ إلى الله تعالى، ثم صار الإمام المتصوف الورع الذي تذكره صفحات التاريخ بكل خير.

إن القلب محل نظر الله سبحانه وتعالى، وفضيلة العبادة على قدر صفاء القلب. يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.[٤٦]

وقد ضرب مولانا جلال الدين الرومي مثلًا عن القلب السليم إذ قال: "سأل سيدنا يوسف عليه السلام صاحبًا له قدِم من سفر: بماذا جئتَني؟ فقال صاحبه: وما الذي ليس عندك؟ لا شيء أجمل منك، فجئتك بمرآة ترى فيها تجليات الجمال فيك".

إن الله تعالى منزه عن كل نقص متَّصف بكل صفات الكمال، وهو خالق الجمال ومسبِّبه. فلا بد للعبد أن يقف في حضرته بقلب سليم حتى ينال تجليات أسراره وجماله.

٤٥ ابن أبي شيبة، مصنف، ٧، ٤٨١.

٤٦ الشعراء، ٨٨- ٨٩.

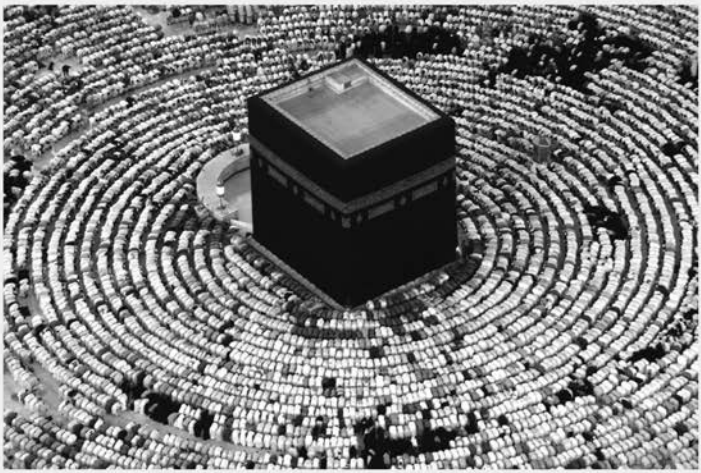
قال رسول الله ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».[٤٧]

فاللهم اهدِنا إلى الصراط المستقيم، واجعلنا من السائرين في سبيل مَن أنعمت عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وقِنا من سبل الضلال والهلاك برحمتك يا أرحم الراحمين...

آمين!

٤٧ مسلم، البر، ٣٣.



صُحبة
الصالحين والصادقين

صحبة الصالحين والصادقين

مرَّ غافل على تكية لولي من أولياء الله، فمدَّ رأسه من بابها كي يرى ما فيها، فرأى مجلس علم، فاشمأز وسار في طريقه. وفي تلك الليلة رأى حلمًا مرعبًا. رأى في منامه أنه في يوم الحشر، تسوقه الزبانية إلى النار، ثم رأى شيخ التكية يقول للزبانية: "اتركوه، فقد كان رأسه في مجلس علمنا أمس".

فقالت الزبانية: "كلا، إنه غافل من أهل النار".

فاستيقظ الرجل فزعًا، وأسرع في الصباح مبكرًا إلى التكية وواظب على مجالس العلم في التكية بقلب حي.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم»

قال: «فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»

قال: «فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟

قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك»

قال: «فيقول: هل رأوني؟»

قال: «فيقولون: لا والله ما رأوك؟»

قال: «فيقول: وكيف لو رأوني؟»

قال: «يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا وتحميدًا، وأكثر لك تسبيحًا»

قال: «يقول: فما يسألوني؟»

قال: «يسألونك الجنة»

قال: «يقول: وهل رأوها؟»

قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها»

قال: «يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟»

قال: «يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، قال: فممَّ يتعوذون؟»

قال: «يقولون: من النار»

قال: «يقول: وهل رأوها؟»

قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها»

قال: «يقول: فكيف لو رأوها؟»

قال: «يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة»

قال: «فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم»

قال: «يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».[٤٨]

إن البشارة في هذا الحديث حثٌّ ضمني على صحبة الصالحين والصادقين، فالأنس بالصالحين والصادقين من أهل الله ضرورة لحفظ القلب مما سواه تعالى وتلقينه بالخير دائمًا.

فكل عضو من أعضاء الجسم فيه إرادة إلا القلب، فلا إرادة فيه، بل فيه ميل للتوجه وفقًا للمحيط الذي يكون فيه. والقلب يأخذ لون المحيط الذي فيه وشكله، ولكن هذه الحال تكون بداية تجذرِ المؤثرات في القلب، وقد تكون هذه المؤثرات حسنة أو سيئة، ولكن ينبغي أن يخضع القلب أولًا للمؤثرات الحسنة ويصل إلى درجة معينة حتى لا يكون في خطر. والمحبة في القلب تُبقي هذه المؤثرات والكره يردها، لذلك كان لا بد من استعمال المحبة والكره في محلهما حتى يترقي الإنسان معنويًّا.

إن الإنسان يتحرر حين يوجِّه المحبة لأهلها والكره لمستحقِّه، وأما إن جعل المحبة لغيره أهلها والكره لمَن لا يستحقه فتسوء أحواله على قدر محبته وكرهه.

وانطلاقًا من هذه الحقيقة نفهم أهمية صحبة الصالحين وضرورة حضور مجالسهم والتأثر بهم من أجل الترقي المعنوي،

٤٨ البخاري، الدعوات، ٦٦.

والاستفادة منهم تكون على قدر المحبة لهم، لأن الصحبة ظاهرًا لا توصِل إلى النتيجة المطلوبة وإنْ كان فيها النفع القليل.

ومما يلفت انتباهنا أن كلمة "صحابي" و"الصحبة" من الجذر نفسه. وقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم خير مثال لنا في الاستفادة من الصحبة بصحبتهم رسول الله ﷺ بمحبة عظيمة وتوقير شديد وصفوه بقولهم:

"جلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير"،[٤٩] وكأنهم بذلك يجعلون هذه المحبة والتوقير شرطًا للاستفادة.

كانت قلوب الصحابة الكرام قبل الإسلام كأرض قاحلة، فلمَّا دخلوا الإسلام وكانوا في مجالس رسول الله ﷺ، نزلت عليهم قطرات البركات والرحمة، فنبتت في قلوبهم بذور الفضيلة التي كانت كامنة، وتحوَّل ذلك الإنسان الفظ الذي كان يئد ابنته في الجاهلية إلى إنسان رقيق القلب كثير الدمع.

لقد حمل الصحابة الكرام أخلاق النبي ﷺ السامية حيثما حلوا، وكانت لهم فضائل خلَّدتها صفحات التاريخ، وقال الله تعالى فيهم:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[٥٠]

٤٩ انظر: أبو داود، السنن، ٢٣-٢٤ / ٤٧٥٣؛ ابن ماجه، الجنائز، ٣٧.

٥٠ التوبة، ١٠٠.

إن مجالس العلم في كل زمان هي امتداد لمجالس النبي ﷺ، فلا بد من اغتنام مجالس الصادقين والصالحين، فهي جنة فيها قلوب تفيض بمحبة الله تعالى.

ولا بد للمرء أن يتجنب الأنس بالغافلين والفاسقين كما يحرص على صحبة الصالحين والصادقين ليحفظ قلبه، فالريح التي تهب على مزبلة تحمل رائحتها وتنشرها، فتضيق الصدور وتقطع الأنفاس.

يقول الشيخ عبيد الله أحرار رحمه الله في هذا الشأن: "صحبة الجاهلين تفتر القلب وتضيق الروح وتفسد الفؤاد".

ويُروَى أن أبا يزيد البسطامي ضاق صدره يومًا، فسأل مَن كان في مجلسه: "هل في مجلسنا غريب؟" فنظروا فلم يجدوا غريبًا، فقال أبو يزيد: "انظروا حيث العصي" فنظروا فوجدوا عصا غافل بين العصي، فرموها، فذهب ضيق صدر أبي يزيد.

وجاء أحدهم إلى عبيد الله أحرار يومًا، فقال له: "أشم منك رائحة عجيبة، وأظنك ترتدي ثوب غيرك"، فقال الرجل متعجبًا: "نعم"، ثم ذهب وبدَّل الثوب وعاد.

وهذا ما يذكرنا بقصة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، فقد أحبَّ سيدنا يعقوب سيدنا يوسف ومال إليه لِما رأى منه من أوصاف، وزادت هذه المحبة وفاضت حتى استطاع أن يشم قميص يوسف قبل أن يصل إليه.

فإذا كانت الأحوال المعنوية تؤثر حتى في الجمادات وتسري إليها، فلا بد من حفظ القلب الذي لا شك في أنه حيٌّ حسَّاس.

وقد قال الأكابر في هذا الشأن: "حتى الجمادات تتأثر بأعمال الخلق وأخلاقهم، فثمة فرق بين العبادة في أماكن الرذيلة والعبادة في أماكن الطاعة والخير من حيث قيمتها. ومن أجل ذلك كانت الصلاة في الحرم المكي أفضل من الصلاة في غيره".

لمَّا مرَّ سيدنا رسول الله ﷺ من وادي محسر بين مزدلفة ومنى، أسرع فيها، لأنه الموضع الذي حُصِر فيه أصحاب الفيل.[٥١]

عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ:

"لما نزل الحجر في غزوة تبوك، أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها"، فقالوا: قد عجنا منها واستقينا، "فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء".[٥٢]

والأمثلة لتأثر الجمادات بالأحوال كثيرة.

إن العارفين والصالحين ينقلون المحبة في قلوبهم إلى مجالسهم، فتنعكس أنوار الأسرار في قلوبهم على الجماعة، وتمتلئ القلوب بنور الفيوضات وأنوار الحقيقة نتيجة الانعكاس والانصباغ وفقًا لطاقة كل قلب. ومَثَل ذلك مثَل نسمة هبَّت على

٥١ انظر: مسلم، الحج، ١٤٧؛ النووي، شرح النووي، ٨، ١٩٠؛ أحمد، مسند، ١، ٧٦.

٥٢ البخاري، أحاديث الأنبياء، ١٨.

حديقة مزيَّنة بأجمل الورود والأزهار، فحملت رائحتها التي تشرح الصدور إلى حيث تذهب.

فعلى العبد أن يسعى للاستفادة من أحوال الصالحين والصادقين حتى يرتقي قلبه، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.[٥٣]

والسراية في الأحوال على قدْر المحبة في القلوب كما ذكرنا من قبل. فلا بد من صحبة الصادقين والصالحين ليكون المؤمن كما ينبغي، أي أن يحبهم ويحاول التقرب إليهم.

عندما جاء درويش إلى أبي يزيد البسطامي وسأله:

"أوصني بعمل يقرِّبني إلى الله"، قال:

"أحِبَّ أولياء الله، حتى يحبوك. واسعَ لتكون في قلوبهم، لأن الله ينظر إلى قلوب العارفين ستين وثلاثمئة مرة في اليوم. فإذا رأى اسمك في قلب أحدهم، لعله يغفر لك..."

لذلك كانت "الرابطة" في التصوف بغية بقاء محبة الصالحين في قلب السالك. فلعلَّ العبد العاصي ينجو من أدران قلوبه بتأثير هذه الرابطة المعنوية، وينال الثواب العظيم من عمل الخير ببركة هذه الرابطة.

فالرابطة تُنشِئ خطًّا معنويًّا عظيمًا بين القلوب وفقًا لشدة المحبة بينها، فتسري الأحوال بين طرفَي هذا الخط حتى يتشابها.

٥٣ التوبة، ١١٩.

والمحبة إذا رُفِدَت بالأُنس بدا المُحِبُّ كأنه فان في محبوبه. وقد عبَّر مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحال في قوله:

"إذا التقى النهر بالبحر، زال وجود النهر وصار جزءًا من البحر الذي دخله. والخبز الذي نأكله يذوب في أجسامنا فيصبح جزءًا منها. وكذلك وجود المُحِب يضيع في محبوبه على قدْر شدة محبته".

ويبيِّن أيضًا هذا الاتحاد في الحال الروحية والفناء بقوله:

"جاء العشق، وملأ أوردتي وجلدي مثل الدم. أخذني من نفسي، وملأ وجودي بالحُب. وشغل حبيبي جميع أجزاء جسدي، فلم يبقَ لي إلا اسمي، وما سواه صار هو..."

وهذا ما يُسمَّى في التصوف "الفناء في الله" و"البقاء بالله"، ولا بد للقلب أن يكون مستعدًا لذلك كي يرتقي في الدرجات في محبة الله، وذلك يكون بالسعي لهذه المحبة.

كان سيدنا أبو بكر ﷺ يعيش في حال من الوجد والاستغراق في كل لقاء جديد مع رسول الله ﷺ، وكانت محبته وشوقه إليه تزداد لدى اللقاء به بدلًا من أن تخف.

ولمَّا جاء بماله كله لرسول الله عليه الصلاة والسلام لينفقه في سبيل الله محبةً ورضا منه، أثنى عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام. ومن شدة محبته لرسول الله عليه الصلاة والسلام فنى به، واستثقل أن يُخاطَبه رسول الله عليه الصلاة والسلام وكأن بينهما حاجزًا يفصلهما، أو كأنه غيره، فاضطرب وبكى، وقال:

"يا رسول الله، هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟"[٥٤]

وحاله هذه كأنها ما وصفه مولانا جلال الدين الرومي إذ قال: "ما الذهب وما الروح وما اللؤلؤ والمرجان إذا لم تُنفَق في سبيل الحب، وفي سبيل الحبيب؟"

ولمَّا سمع الصدِّيق ﷺ يومًا بمرض رسول الله ﷺ، مرضَ من شدة حزنه عليه. وقد قال رسول الله ﷺ في مرض موته:

«**لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر**».[٥٥]

وقال الشيخ سعدي الشيرازي في سراية الأحوال:

"نال كلب أصحاب الكهف الشرف العظيم لصحبته الصالحين، حتى إنه ذُكِرَ في القرآن الكريم وخلد في صفحات التاريخ. أما زوجة النبي لوط فوقعت في الكفر لصحبتها الكافرين الفاسقين".

إن انتقال الحال عن طريق الأُنس بالصالحين والصادقين وما ينتج عنه من "تشابه" هو ما يصفه الشيخ سعدي على صورة حكاية تشخيصية:

"يذهب الرجل إلى الحمام، فيعطيه أحد أصدقائه في الحمام صلصالًا ذو رائحة عطرة كي ينظف جسده، فتنبعث رائحة ذكية من هذا الصلصال تلاطف الروح. ثم يسأل الرجلُ الصلصالَ:

٥٤ ابن ماجه، المقدمة، ١١.

٥٥ البخاري، أصحاب النبي ٣، المساجد ٨٠.

"أيها المبارك، لقد انتشيت برائحتك العطرة، فقلْ لي أأنت مسكٌ أم عنبر؟"

فيجيبه الصلصال:

"لست مسكًا ولا عنبرًا. فكما تعرفون أنا من تراب مُهمَل، لكنني كنت تحت وردة، وكنت ابتلُّ بقطرات الندى المتساقطة من براعمها. وتلك الرائحة التي كنتم تشمونها وتشرح صدوركم ما هي إلا لتلك الوردة".

فنجد من خلال المعاني التي تشير إليها هذه الحكاية أن من يضع قلبه أمام أولياء الله بصدق وتسليم وتواضع سيصل إلى حالة تتجلى عليه انعكاسات الجمال التي يسعى وراءها. وكما أن القمر في السماء الذي يعكس جزءهُ المطلُّ على الشمس حزمَ الضوء التي تشع من الشمس، فيصبح جزءًا من الشمس- على الرغم من أن القمر بنفسه لا يملك الضوء- كذلك هو حال أمثال هؤلاء، وهم كالسراج الذي ينير الليالي الحالكة نتيجة ظلم الإنسان.

فاللهم أكرِم قلوبنا بما أكرمتَ به قلوب الصحابة الكرام في مجالس رسول الله ﷺ، وألِحقنا في زمرة الصالحين...

آمين!



الروح والجسد

(السلطان والجارية)

الروح والجسد
(السلطان والجارية)

إن الإنسان الذي خُلِقَ مُكرَّمًا يتكون من روحَين، فيتميَّز بذلك عن سائر المخلوقات. فأما الروح الأولى فهي "النفس" التي تكون في جميع المخلوقات وتفنى بفناء الجسد، وأما الأخرى فهي المذكورة في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[٥٦]،

أي الروح السامية التي وضعها الله في جسد الإنسان حين كان في بطن أمه، ومن أسماء هذه الروح: "الروح السلطانية".

وأصل الجسد التراب. وكلُّ شيء يميل فطرةً إلى العودة إلى أصله، لذلك يميل الجسد إلى النعم التي تأتي من التراب، ولا ينتهي هذا الميل إلا بوضع الجسد في التراب.

وأما الروح فتأتي من الله بنفحة إلهية، لذا تميل إلى الأمور السامية. فالحياة في كل إنسان معركة أبدية بين الروح والجسد. ونتيجة صراع الميول التي تنشأ من أصل الروح وأصل الجسد تحدِّد إنْ كان الإنسان سيكون في أسفل سافلين أو أحسن تقويم.

٥٦ الحجر، ٢٩.

وقد صوَّر مولانا جلال الدين الرومي في القصة التالية حكاية الصراع بين الروح والنفس، وسعي كل منهما للسيطرة على الآخر، إذ قال:

في يوم من الأيام خرج سلطان عظيم من قصره برفقة حاشيته للصيد. وفي الطريق التقى بجارية جميلة، فأصابه حبُّها وخضع لعشقها. ولم يستطع هذا السلطان الذي خرج ليصيد أن يخفف من نار العشق في قلبه، فاشترى الجارية بمال كثير، لأن قلبه كان يضطرب في قفص جسده كما يضطرب الطائر في القفص.

وبعد أن اشترى الجارية ونال رغبته، اعتقد أنه بلغ السعادة، غير أن سعادته هذه لم تدم طويلًا، إذ أصيبت الجارية بمرض شديد، وبدأت تذبل كما تذبل الزهرة، وصارت كورقة صفراء تسقط في الخريف. ثم ما عادت تستطيع القيام من سريرها، فدعا السلطان عاجزًا أمهرَ الأطباء والحكماء، وطلب العلاج لها وقال: "حياتي وحياة جاريتي بأيديكم".

فقال طبيب منهم متعاليًا:

"يا مولاي، كلُّ واحد منا عيسى في الطب! فاعلمْ أنه ليس مرض لا يمكننا علاجه!"

ولم يقل: "إن شاء الله"، فكان تعاليهم وتكبرهم سببًا لوقوعهم في الذل والعار. إذ لم تُشفِ أدويتهم الجاريةَ بل زادتها مرضًا. فخارَت قواها يومًا بعد يوم.

ولمَّا أدرك السلطان عجز الأطباء، استعاد وعيه وسارع إلى المحراب وسجد لله وبكى وتضرع لربه قائلًا: "يا الله! أنت أعلم بما في القلوب. لقد أسرتني جارية فانية، فيا مَن لديه الشفاء لهمي، لا تردني خائبًا عن بابك!"

فنزلت عليه رحمة الله بعد هذا التوسل والتضرع، فالدموع الصادقة تجلب رحمة الله، وألهمه الله بأنه سيرسل له عبدًا من عباده الصالحين المخلصين للعلاج.

فأسرع السلطان مسرورًا إلى القصر، ورأى أن الضيف قد وصل، فبُهِر من نوره، فنوره كان أشد من نور الشمس. فُدهِش السلطان وحار، وأحسَّ بما لم يحس به من قبل وقال للضيف الكريم: "أنت الذي أحبه في الأصل، لا تلك الجارية. ولكن الأمور لا تسير كما نريد في هذا العالَم. ومن الأسباب تولَد الأسباب بحكمة من الله".

ثم احتضن الضيفَ ذا الوجه النوراني، وكأنه أدخله في قلبه. وراح يقبِّل يديه وجبينه وهو يتساءل:

"هل هناك حجاب على أعين الناس فيعمون عن رؤية هذه الحقيقة؟ كيف لا يرون هذا القمر المشرق؟"

ثم قال مسرورًا:

"ما أعظم الكنز المعنوي الذي وجدته بتحملي المحن والصبر عليها".

ثم عبَّر عن همه قائلًا:

"يا هدية ربي! يا أيها المعنى المشخص لحديث "الصبر مفتاح الفرج"[٥٧] أهلاً بك! فهمت أنه لولاك، مَن يدري كم من المصائب والمحن ستحل علينا. وحتى هذه السماوات الواسعة ستضيق علينا. هذه المحنة التي أصابتني..." وأراه الجارية المريضة.

كان هذا الطبيب سلطانًا في الروحانية ذا بصيرة وفراسة، واستطاع بنور الله أن يشخِّص المرض من أول نظرة:

كانت الجارية مريضة في روحها، إذ لم يكن بجسدها أي مرض، ولكن روحها كانت مضطربة مجروحة مهمومة.

وبعد أن شرح الطبيب الروحاني حال الجارية للملك بإيجاز، أخرج الجميع من الغرفة ليتحدث مع الجارية. ثم بدأ يسألها أسئلة مختلفة، فسألها عن بلدها والمصائب التي حلَّت عليها. لأن هذا كان السبيل الوحيد للكشف عن أسرار الجارية. ولمَّا ذُكِرَ "سمرقند"، تسارعت نبضات الجارية واحمرَّ وجهها، ولمَّا ذُكِرت كلمة "صائغ مجوهرات"، كادت تفقد السيطرة على نفسها.

نال الطبيب الروحاني ما يريد من معلومات، ثم طلب من الملك أن يُحضِر الصائغ ويعطيه الجارية.

٥٧ الديلمي، الفردوس، ٣٨٤٤.

ففعل الملك ما طلبه بعد أن لم تبق في يده حيلة، وبدأت الجارية تتحسن بعودتها إلى حبيبها، واستعادت جمالها كما يستعيد الغصن الجاف أوراقه في الربيع.

كانت غاية الطبيب الروحاني أن يجد الدواء لهمِّ السلطان، فبدأ يعمل على الجانب الآخر من واجبه الروحاني. إذ أعد شرابًا فعَّالًا للصائغ، وعندما شربه، بدأ يذبل أمام عيني الجارية، حتى نحل وبات قبيحًا، بل أشد الناس قبحًا. وزال الجمال عنه وظهرت عيوبه.

ومع مرور الأيام زال إعجاب الجارية بالصائغ حتى مات ودُفِن في التراب. وهكذا تخلصت الجارية من الشدائد الدنيوية التي وقعت فيها، وأصبحت نقية طاهرة.

إن هذه القصة المذكورة في كتاب (المثنوي) ليست قصة حُبٍّ بين جنسَين مختلفَين. بل تعبِّر عن أحوالنا كما أشار مولانا جلال الدين الرومي في بدايتها.

تعرض هذه القصة رحلةَ الإنسان بعد أن يُنفَخ في جسده الروح من الله، وما يتعرض له من مصائب ومشقات والحِكمَ منها. أي إنها قصة موسى وفرعون في داخلنا.

وتعرِض بأسلوب قصصي جميل كيف انتقلت الروح من موطنها إلَى هذا العالَم لتدخل الجسد، ثم تعود إلى عالَم الوحدة بإصلاح النفس.

فالسلطان المذكور في القصة يمثل الروح السلطانية التي نفخها الله في الإنسان، وأما الجارية فتمثل النفس، وأما الصائغ فيمثل الرغبات والشهوات والمغريات الدنيوية التي يجري وراءها الإنسان طوال حياته، ثم تتلاشى وتزول في النهاية.

وأما الطبيب فيمثل الطبيب الروحاني، أي المرشد الكامل.

فحكاية الإنسان كما يلي:

يخرج السلطان من قصر الوصال، أي الروح السلطانية، وأثناء رحلته في صيد المعرفة، يرى الجارية أي النفس، فينسى شأنه الرفيع ومقامه العالي، وينجذب إليها. وعندئذ ينسى العبودية والمعرفة التي هي الغاية من خلقه، فيمسي فريسة للنفس وأسيرًا لها، ويبدأ بفعل كل ما يستطيع من أجل أن يرضيها.

غير أن النفس تنظر دائمًا إلى الأسفل لطبعِها، إلى أسفل السافلين، وتظن الدناءة سعادة. وحبها للصائغ يعبر عن رغباتها الدنيوية، وحبها للذهب والفضة، ورغبتها في أن تعبدهما. فلا تلتفت إلى الروح أبدًا. أي كلما طلبتها الروح، ابتعدت عنها.

تعاني الروح من ذلك، فتعرض النفسَ على أطباء، ولكنهم يعجزون لأنهم ليسوا أهلًا للمعالجة المعنوية، ولا يستطيعون أن يجدوا علاجًا للهموم الداخلية. فثمة حاجة إلى طبيب ماهر، إلى مرشد كامل. ولمَّا وجدَت الروح مرشدًا كاملًا، رأت فيه نور الله، فقالت: "أنت حبيبي الحقيقي!" فاتَّبعت إرشاده كي تتحرر من قبضة

النفس. وبذلك استحقرت نِعَم الدنيا التي كانت تعشقها، واتجهت إلى محبة الله التي تطمئن بها القلوب.

وتشويه الطبيب المعنوي أي المرشد الكامل الصائغَ جزءٌ من الحكمة. فالمرشد يخلِّص قلب المريد من الرغبات الدنيوية التي غلبت عليه بتحقير الأهواء الزائلة بتجلي اسم الله "الرقيب". فكان الهدف من الشراب الذي أعطاه الطبيب المعنوي للصائغ الكشفَ عن وجهه الحقيقي الذي كان مخفيًا عن العيون في البداية، وكأن الطبيب يقول:

"أيها المُعجَب بجمال الربيع انظر إلى صفرة الخريف وبرودته".

"إذا رأيت شروق الشمس الجميلة في الصبح، فاذكر أن غروبها يعني موتها!"

"يعيش كلٌّ فان هذه المغامرة. وكمال أي شيء أو جماله محكومٌ بالزوال".

"يا مَن تطلب ملذات الأطعمة قم واذهب إلى المرحاض وانظر إلى مصيرها".

"انظر إلى أولى العلاقات الدنيوية التي سعيت وراءها طوال حياتك، ثم انظر كيف تتلاشى وتتدهور واتعظ بها".

"هذا العالم الفاني وضع لك الفخ، وبه خدع الأرواح الشابة وأفسدها".

"خذ حذرك وضع فخَّك له، واسعَ للنجاة من الخسران!"

"انظر إلى النقش الأخير على المرآة! فكِّر في قبح شيخوخة الجميلة، وكيف يَؤُلُ كلُّ بناء إلى خراب، ولا تغتر بالكذب على المرآة".

تستمع النفس إلى نصح الطبيب المعنوي فتدرك بعد موت الصائغ أن كل ما ترغب فيه فان. فتتخلص من جميع الشهوات الدنيوية وتتطهر، وتغدو أهلًا لمحبة الروح. وتدرك أنه حتى السم الذي يقدمه أهل العلم يمنح السعادة للقلوب والغذاء للأرواح. أي إن ماء الحياة الذي يقدمونه يطهِّر القلب والنفس من الثعابين السامة والعقارب الخفية التي تظهر في بعض الأحيان. وبذلك ينال العبد قلبًا يستحق تجليات الله.

والحبُّ بين الجارية والصائغ في القصة يعبِّر أيضًا عن "الحب المجازي" للإنسان. ومثل هذا الحب المجازي قد يختفي في يوم من الأيام كما في القصة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"عشق الفاني لا يدوم، والموتى لا يعودون إلينا مرة أخرى. وأما عشق الباقي فيبقى نضرًا كل دقيقة. فاعلم ذلك ولا تغتر بعشق الفاني وتسكر به وتذبل! بل اختر العشق الحقيقي الذي وجد فيه الأنبياء والأولياء القدرة والسعادة، فعشق الباقي يجعلك عاشقًا للمعشوق الحقيقي. وكلُّ عشق فانٍ يشغل مكان العشق الحقيقي إنْ لم يكن درجة لترقي القلب إلى محبة الله، فهو مردود، ذلك أن

القلب الذي يعلق بليلى لا يصل إلى المولى ولا يجد السكينة".

وأما اختلاء الطبيب المعنوي بالمريضة في القصة لمعلاجتها فيمكن تفسيره كما يلي:

إن اختلاء المرشد الكامل بالمريد شرط، وهو كإعطاء الطبيب الوصفة الطبية لمريضه بعد معاينته. لذلك يعطي المرشد الكامل الدرسَ للمريد وحده، ويُطلَق على ذلك في التصوف "الخلوة".

فعلى المريد الذي يريد السلوك في طريق الحق والاستفادة كما ينبغي أن يسلِّم قلبه بكل صدق لتربية المرشد وأن يطلب ذلك من المرشد بِجِد.

وعلى المرشد أن لا يسعى وراء أي غاية سوى توجيه المريد في طلبه الحقيقة، وعليه أن يدرك المسؤولية الثقيلة لتوليه إرشاد المريد، أي يجب ألا يكون هناك أي شعور أو فكر غريب بين المريد والمرشد. أي على المريد أن يتجرد عن أمور الدنيا بفنائه بمرشده. وإلا فلن يكون من الممكن إزالة الشوكة الخفية في قلب المريد الذي تهب عواصف الشكوك أو المعارضة في باطنه. فالطبيب الجرَّاح يتوقَّع من مريضه أن يسلِّم أمره له، ثم يؤدي عمليته ليعلاجه.

لقد خضع الصحابة الكرام لرسول ﷺ بعد أن تخلوا عن رغباتهم الدنيوية، وصار أحدهم يقول له بعد أي أمر ولو صغرَ: "فداك أبي وأمي يا رسول الله".

وخير مثال سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ، فقد كان في قلبه حب عظيم لرسول الله عليه الصلاة والسلام حتى إنه كان يشتاق إليه وهو في مجلسه.

فروح الإنسان تختلف عن جسده اختلافًا كبيرًا في طبيعتها وإنْ كانت قريبة منه من حيث الأفعال، فهي باقية في حال واحدة لا تتغير، أما الجسد فيتغير من حال إلى أخرى منذ لحظة الولادة حتى يُدفَن في التراب. والسبب في ذلك أن الروح أتت من مقام عالٍ، وأما الجسد فمن عالم فان.

إن المقصود من المجيء إلى الدنيا نيل الدرجة السامية والسعادة الأبدية. لذلك لا يغتر ذو الفراسة والبصيرة بالجسد الفاني، فينشغل بنيل الأبدي، لأن كل شيء يتعلق بالجسد يكون قربانًا للتراب في النهاية.

فإذا ترك الإنسان الصفات السامية التي أعطاها الله وضحى بروحه من أجل نفسه، فلن ينال إلا الخسران، وأما إذا قوَّى روحه وغلب نفسه، فلا يميل إلا للوصول إلى وطنه الحقيقي إنسانًا كاملًا، ويغدو الموت عندئذ نعمة له وإكرامًا من ربه.

وإذا قطعت الروح السلطانية علاقتها بالروح الحيوانية وميلها إليها وأخضعتها لها، فإن القلب يصبح كالمرآة الصافية المُجلَّاة، ويبيت محلًّا لأسرار الله تعالى.

ومثل هذا القلب يكون محط تجليات الله تعالى، ويطلع صاحبه على الحكم والعبر، وعليه تقع السنوحات القلبية والإلهامات الصادقة التي تُعد من مصادر الحقيقة التي لا شك فيها.

ثم يشاهد تجليات قدرة الله في الكون، ويسجد في حضرة المولى جل جلاله، ويجد السرور في العجز المطلق أمام الخالق، وينطق قائلًا بِصدق:

"لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك".[٥٨]

وقد فسر بعض من المفسرين قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٥٩] تفسيرًا إشاريًّا، فقالوا إن الآية تشير إلى تجنب جعل الروح التي هي في موقع السلطان أسيرة للنفس الجارية وإهلاكها.

فمن الواضح الحاجة إلى الطبيب الحاذق أي المرشد المعنوي دائمًا، لأن القلب يواجه مشكلات أشد خطورة من الجسد.

ومثَل النفس مثَل الشجرة، فكما أن الثمرة قبل نضجها مرتبطة بالشجرة بقوة، والروح قبل نضجها مرتبطة بالنفس.

فالروح الناضجة تتخلص من النفس كما تترك الثمرة الناضجة الشجرةَ، ويسير ذو الروح الناضجة نحو عالم الروحانية بصدق، فينفق نعمَه، ويدرك سر قول: "موتوا قبل أن تموتوا".

٥٨ مسلم، الصلاة، ٢٢٢.

٥٩ البقرة، ١٩٥.

إن الروح الناضجة تتوق إلى العودة إلى مكانها الأصلي،إذ تعرف فناء الزمان والمكان. وعندما تنزل الروح من المراتب السامية والقدسية وتدخل الجسد، إذا استطاعت الحفاظ على أصلها ولم تنجر وراء الأمور الزائفة على الطريق، فإن مكان عودتها سيكون المقام الذي جاءت منه.

لذا على الإنسان أن يدرك أنه ليس ترابًا فقط. ففيه روح طاهرة من الله، وهذه الروح جوهر هذا الكون وأبهى ما فيه.

ويجب ألا ينسى أن جسده كالجلد الخام يحتاج إلى دباغة، ونفسه مثل دابة تحتاج إلى ترويض، وقلبه مثل حديقة ورود تحتاج إلى الرعاية.

إن الأرواح كانت غارقة في حب الله في عالَم الأرواح. كانت في مقام الشوق واللذة كل حين. ثم بُعِثَت بإرادة إلهية وحكمة ربانية من تلك المراتب السامية والمقامات الرفيعة إلى عالمنا الدنيوي. فنسيت أكثرها اللذة والسرور بالوصال مع الله في وطنها الأصلي لبعدها عنه، فنظروا إلى كل ما رأوه في هذا العالم بعيون أنفسهم، واغتروا بها، فُحرِموا من رؤية الحقيقة.

ومن أجل تجنب هذه الحال قال رسول الله ﷺ:

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».[٦٠]

٦٠ البخاري، الرقاق، ٣.

وكان ابن عمر ﷺ الذي روى هذا الحديث يقول:

"إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك".

أي اشتغل حال الصحة بالطاعات بقدر يسد الخلل والنقص الحاصل بسبب المرض الذي قد يقعد عنها، واغتنم أيام حياتك بالأعمال التي تنفعك عند الله تعالى بعد موتك.

ولا ريب أن الذي لا يهتم إلا براحة جسده يضيع حياته، وأما البصير الذي يفكر في سلامة روحه وسعادتها فيسير قدمًا ويرتقي الدرجات.

إذا زاد غذاء الجسد وفاق حاجته، فلا يكون إلا ضررًا عليه، وأما غذاء القلب، فكلما زاد كان أكثر نفعًا.

والجسد وعاء الروح، فيجب أن يُحفَظ أيضًا، ولكن من غير مبالغة وإفراط، لأن الأَولَى هو الروح.

فيا رب، لا تجعلنا أسرى لشهوات النفس داخل قفص الجسد هذا! واحفظ جمال أرواحنا ونقاءها وصفاءها، وأكرمنا برحمتك ومحبتك يا أرحم الراحمين...آمين!



﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

(الرعد، ٢٤)

الإيمان و الامتحان

الإيمان والامتحان

يسعى التصوف أساسًا إلى تزيين الإنسان بالإخلاص والتقوى ليصل إلى درجة الإنسان الكامل. فالإنسان جاء إلى هذا الكون المجهَّز بتجليات قدرة الله وأسراره ليستعد لعالم الخلود، ومن أجل ذلك يخضع لامتحانات شتى. فلا بد له من النجاح في هذه الامتحانات ونيل "القلب السليم" كي ينال النِّعم المعدة له في الآخرة.

ولهذا يمر الإنسان من مراحل كثيرة مليئة بالضيق والألم في موضوع الإيمان والفضيلة، وبذلك يتميز الصادق من الفاسق في سبيل الله، لذلك لا يكفي الإيمان وحده، بل يجب الارتقاء به وتزيينه بالأعمال الصالحة للنجاح في امتحانات الله.

قال الله تعالى مبيِّنًا تداخل الإيمان والامتحان:

﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.[٦١]

٦١ العنكبوت، ١-٣.

فالإيمان نعمة، والامتحان مقياسه. والمحافظة على الإيمان بالصبر والاستسلام ثمَنٌ يدفعه العبد. أي إن الله تعالى كأنه يطلب ثمنًا من عباده- على قدر طاقتهم- بالامتحانات التي يمتحنهم بها، كي يدركوا عِظَم النِّعَم وقيمتها، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.[٦٢]

فتقديم ما يطلبه الله تعالى أي التضحية بالمال والنفس وغيرهما من أجل نيل رضا الله تعالى وسيلةٌ لكمال الإيمان. ولا شك أن المشقات والمحن التي يواجهها المؤمنون في هذه الدنيا تُسجَّل ثمنًا لنيل المكاسب في الآخرة.

وأما الذين أغرتهم الشهوات الدنيوية واتخذوا الكفر سبيلًا فظُلمُهم مَن يسعون لعيش الكتاب والسنة في هذه الحياة الدنيا هو ثمن يدفعونه للعذاب الخالد في نار الآخرة. فهم يستحقون العذاب لسببين: الأول عدم إيمانهم، والثاني ظلمهم المؤمنين.

فلا بد من العبادة والعمل الصالح والاقتداء برسول الله ﷺ لا سيما في أوقات العسر.

وما العمل الصالح؟ إنه العيش بإيمان وعبادة وأخلاق سامية يرضى الله عنها ورسوله، بأي ثمن من الأثمان.

٦٢ التوبة، ١١١.

عرَّف أهل التصوف العملَ الصالحَ على أنه عيش قاعدة التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله. والالتزام بهذه القاعدة لا سيما في أوقات الشدة من الناحية الدينية والإيمانية يزيد من استجابة الله وعونه ورحمته. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.[٦٣]

وإذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي، نجد أن المؤمنين أنجزوا إنجازات عظيمة بعون الله على الرغم من ضعفهم، كما في بدر ومؤتة وفتوحات طارق بن زياد وملاذكرد.

وهذا دليل على أن المؤمنين يُوفَّقون على قدر إخلاصهم وصدقهم. فمَن أخلص وصدق، غلبَ، ومَن لم يخلص ولم يصدق، هُزِمَ. وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.[٦٤]

فالسير في سبيل الله ورسوله في جميع الأحوال ومع كلِّ الصعوبات والتحديات إنما هو علامة إيمان المؤمن. وعلى كل مؤمن أن يدفع ثمن نعمة الإيمان هذه. وقد ذكر القرآن الكريم

٦٣ آل عمران، ١٢٠.

٦٤ آل عمران، ١٦٠.

هؤلاء الذين يدفعون هذا الثمن في قول: "يقرضون الله"، وأن الله سيكافئهم على ذلك أضعافًا:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.[٦٥]

ومن المحال نيل شيء من غير دفع ثمنه. قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.[٦٦]

وقال رسول الله ﷺ:

«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة».[٦٧]

فلا تقتصر الحكمة من الابتلاءات على تمييز الصادقين من الفاسقين، بل هي تطهِّر العبد من خطاياه. فظلمُ الظالمين المؤمنين نعمة لمَن حفظ إيمانه وإنْ بدا عذابًا.

لمَّا رأى سحرة فرعون معجزة سيدنا موسى عليه السلام، خروا سُجَّدًا وآمنوا برب موسى وهارون، فغضب فرعون وأراد أن يسيطر حتى

٦٥ البقرة، ٢٤٥.

٦٦ البقرة، ٢١٤.

٦٧ الترمذي، الزهد، ٥٦.

على إرادة السحرة فصاح: "آمنتم به قبل أن آذن لكم؟ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين".

فقال السحرة:

﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.[٦٨]

فلم يخشَ السحرة من تهديد فرعون، ودفعوا ثمن هدايتهم بقطع أيديهم وأرجلهم.

وحرق الظالمون أصحابَ الأخدود لإيمانهم بالله، فما تراجع أصحاب الأخدود، بل انطلقوا إلى الموت في سبيل إيمانهم، ودفعوا ثمن ذلك الإيمان، فاصطفاهم الله وجعلهم من عباده الصالحين.

ورُجِمَ حبيب النجار من أصحاب القرية لإيمانه، ولمَّا رأى نِعَمَ الله في لحظاته الأخيرة، أشفق على قومه لغفلتهم فقال:

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.[٦٩]

إذ رأى في السرور الأبدي مكافأةً على رجمه.

وفي العهد الأول للنصرانية اجتمع الرومان واليونانيون والوثنيون على ظلم أهل الإيمان، فكانوا يجرونهم إلى المسارح الكبيرة ويضعونهم أمام الحيوانات المفترسة ليمتِّعوا المتفرِّجين

٦٨ الأعراف، ١٢٥- ١٢٦.

٦٩ يس، ٢٦.

بتمزيق الحيوانات أجسامهم. ومع ذلك صبر أهل الإيمان أمام هذه المحن ونالوا الفوز العظيم.

ودفع المسلمون الأوائل في مكة ثمنَ إيمانهم ثلاثة عشر عامًا قبل الهجرة، فكان الجوع والظلم والهجرة إلى الحبشة وغيرها من الصعوبات ثمنًا لإيمانهم، حتى هاجروا إلى المدينة المنورة، التي كانت قلب الإسلام بكل ما للكلمة من معنى، وعاشوا الإسلام كما ينبغي.

وكانت المصاعب والمشقات التي تعرض لها رسول الله ﷺ في الطائف سببًا لوصوله إلى نعمة المعراج، وهي النعمة الذي لم يُنعَم به أحد من الأنبياء.

ولم يترك الله تعالى الذي تكفَّل بالدين الكافرين بلا عقاب، فصفحات التاريخ تشهد على ما نزلَ من عذاب إلهي على الذين ضلوا وحادوا عن سبيل الإيمان، مثل الظالمين المتكبرين من قوم نوح وعاد وثمود، وفرعون الذي تحدى الأنبياء وادعى الألوهية وهلك غرقًا، ونمرود الذي غلبته ذبابة، وقوم لوط الذين كانوا أضل من الحيوانات، وغيرهم كثيرون، كلهم هلكوا لظلمهم وعصيانهم.

فلم تبكِ عليهم السماء، ولم تدمع عليهم العيون، بل كانت مزبلة التاريخ مأواهم لظلمهم ودعاء المظلومين عليهم، ولم يبقَ مما كان لهم إلا الأطلال.

إن تاريخ الكفر والعصيان والظلم مليء بأمثلة الانتقام الإلهي المروعة. فمخالفةُ أمر الله وأنبيائه وظلمُ المؤمنين يُوجِب عذاب الله وقهره، وهو قانون إلهي لا مفر منه ولا تغيير فيه. فالفيضانات والأعاصير والزلازل والجفاف وسحب العذاب وغزو الأعداء والأمراض الوبائية، كلها تجليات لعذاب إلهي في كثير من الأحيان.

والظواهر التي تبدو "ظواهر طبيعية" ليست بظواهر عشوائية، بل قائمة على أسباب وحِكَم، وتقع بسبب معاصي البشر غالبًا.

إن الله تعالى ليس بظالم- حاشاه- ولكن الكوارث تقع لأن العباد يستحقونها، وقد بيِّن الله هذه الحقيقة في قوله:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.[٧٠]

فلا مناص للذين يعارضون نظام الله في كونه من انتقام الله وعقابه.

هناك آلاف من الأسرار المخفية في كل حادثة فيزيائية. وهذه الأسرار ظاهرة للأنبياء وأهل الله، وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾.[٧١]

٧٠ الشورى، ٣٠.

٧١ القصص، ٥٨.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.[٧٢]

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.[٧٣]

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾.[٧٤]

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.[٧٥]

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.[٧٦]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[٧٧]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.[٧٨]

---

٧٢ القصص، ٤٠.
٧٣ ق، ٣٦-٣٧.
٧٤ المؤمنون، ٤٢.
٧٥ الأنبياء، ١١.
٧٦ هود، ١٠٢.
٧٧ الأحقاف، ٢٧.
٧٨ القمر، ٥١.

إن ربنا سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، فهو الذي جعل نار نمرود جنَّة من الورود بإيمان إبراهيم عليه السلام، وجعل مُلْك فرعون رأسًا على عقب بعصا موسى عليه السلام، وجعل محيط مكة مقبرة للفيل والجنود الذين جاء بهم أبرهة لهدم الكعبة بطيور صغيرة، وكذلك أذلَّ الأمم الطاغية، وهو الذي أيَّد رسوله الكريم محمدًا عليه الصلاة والسلام بجنود لا يُروَن، مثل الملائكة والريح والرعب.

فكلَّ متمرد عاص يرفع راية الكفر والعصيان أمام الإيمان والإسلام لا بد أنه هالك على يد القدرة الإلهية العظيمة.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.[٧٩]

لذا على المؤمنين أن يولوا اهتمامًا أكبر لواجباتهم الإسلامية وروابطهم الدينية وجماليات أخلاقهم في مواجهة كل تحدٍّ وابتلاء. وأما تحويل جوهر الإيمان إلى شكل من أشكال اللعب من أجل المصالح في ظروف الحياة المتغيرة فيعني تعريض الإيمان لخطر عظيم. وتحذير الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن تحذير شديد، إذ يقول:

٧٩ المنافقون، ٧.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا. بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.[٨٠]

وينبغي أن لا ننسى أن الإنسان خاضع لقوانين الحياة والموت. فما أشدها من حماقة ألا يحافظ الإنسان على الإيمان بالله الذي هو المحيي والمميت، والذي ينعم عليه بنعم عظيمة.

فالنعم المادية والمعنوية مثل العين والأذن واللسان واليد والقدم والوعي والضمير نعم سامية أعطاها الله لتحقيق الهدف الفطري، أي جعل الإنسان أهلًا لتلقي الحقيقة الإلهية.

فالله تعالى أعطى العين لترى آياته في الكون وتدرك بريق الحق والحقيقة، والأذن لتنصت لأصوات الهداية، واليد لتكون سببًا في الخيرات، والقدم لتسارع إلى الأعمال الصالحة، واللسان ليترجم معاني القلب ويقرأ تجليات الله ويذكر الله كثيرًا، والوعي ليتأمل في تجليات قدرة الله في العالَم، والضمير لإدراك التجليات القدسية في العالم الباطني.

٨٠ النساء، ١٣٧-١٣٩.

فاستعمال هذه النعم المادية والمعنوية في الفسق والفجور خيانةٌ للغاية من الخلق ومعصيةٌ للخالق، وأما استعمالها في محلها الصحيح فعودةٌ إلى الفطرة وتغذيةٌ للقلب بالحياة الروحانية.

ولا ريب أن الذين يحاولون التسلط على رقاب المسلمين والإساءة للقرآن سينالهم في نهاية المطاف عقاب الله الذي تكفَّل بحفظ دين الإسلام.

وليس يخفى على أحد أذى الألسنة والأقلام التي تنفث السم، فتسيء إلى المؤمنين الطاهرين. ويجب أن ندرك أنه من المحال تغيير الفطرة وخلق الله. ولا يمكن لأحد أن يمنع شجرة الدِّين الباسقة من أن تنمو وتعلو، وإنْ كان هناك سعي دائم لنشر الإلحاد بالظلم، ولا أحد يستطيع أن يكبت حاجة العبد لربه. فهذه الميول السامية في الفطرة قائمةٌ لا تزول، لأن الله تعالى جعل الحاجة إلى الدين والقرب من مرضاة الله من سنَّته في الخلق.

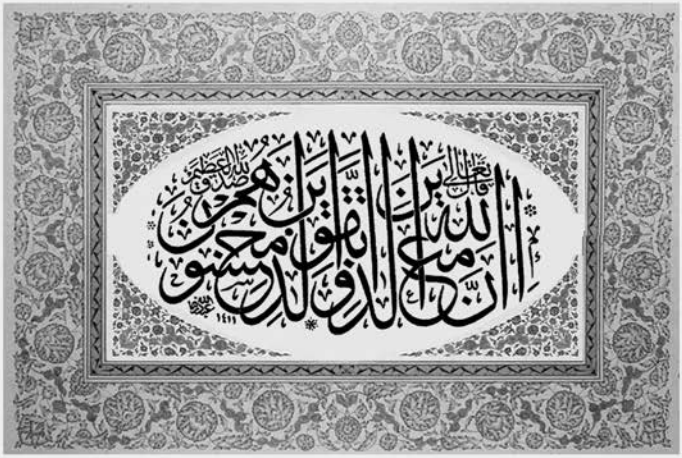
﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.[٨١]

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.[٨٢]

آمين.

٨١ البقرة، ٢٥٠.

٨٢ آل عمران، ١٩٤.



﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

(النحل، ١٢٨)

الإخلاص

الإخلاص

رُويَ عن الإمام أبو القاسم القشيري أن عمرو بن الليث أحد ملوك خراسان ومشاهير الثوار المعروف بالصفار رؤيَ في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي، فقيل بماذا؟

قال: صعدت ذروة جبل يومًا، فأشرفت على جنودي فأعجبنى كثرتهم، فتمنيت أني حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته فشكر الله لي ذلك وغفر لي.[٨٣]

فهذه الرواية مثال جميل يُظهِر مدى أهمية الإخلاص والصدق للمؤمن، فيغدو العبد مستحقًا لكثير من النعم بفضل بركة الإخلاص والصدق حتى في الأعمال التي لم يؤدِّها.

وقد قال رسول الله ﷺ:

«**نية المؤمن خير من عمله**».[٨٤]

٨٣ القاضي عياض، الشفا، ٢، ٣٤.

٨٤ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٦١.

لأن النية هي عمل القلب. وفي الإسلام تُقاس قيمة الأعمال بالنية التي تؤدي إلى ظهورها. أي إن الحُكمَ على عمل من أعمال الإنسان قائم على المقصود منه.

قال رسول الله ﷺ:

«**إنما الأعمال بالنيات**».[٨٥]

لذلك يجب أن تُؤدَّى جميع الأعمال الصالحة والعبادات بنية السعي لنيل رضا الله تعالى، وهذا لا يكون إلا بالإخلاص. والإخلاص هو أداء الأعمال لنيل رضا الله وحده وخلوها من أي غاية نفسية. فمَثَل الإخلاص للعمل كمثَل الروح للجسم. والعمل بلا إخلاص ليس إلا تعب لا جوهر فيه. والقصة التالية توضِّح هذه الفكرة:

كان درويش يصلي في المسجد ليلًا، فأمطرت السماء، فخطر على بال الدرويش بيته، فسمع صوتًا من ناحية من المسجد:

"أيها الدرويش، إنك لا تنال شيئًا بهذه الصلاة، فقد أرسلت الجميل فيك (أي قلبه) إلى البيت، وأبقيت القبيح (أي نفسه)".

إن هذه القصة توضح أنه لا يمكن الرقي بالأعمال إلى مستوى العبادة إلا بربطها بغاية سامية بالإخلاص. إذا نجح الإنسان في تحرير أعماله من الأهواء الدنيوية وجعلها في خدمة

٨٥ البخاري، الإيمان، ٤١؛ مسلم، الإمارة، ١٥٥.

أمر الله، فإنه يُظهِر كمال خلقه. وهذا يعني جعل رضا الله تعالى غايةَ الحياة، فترتقي الأعمال إلى مستوى العبادة. وإذا كان النوم، والأكل، والشرب، وتربية الأولاد وامتلاك المال وغيرها الكثير من الأعمال البشرية وسيلةً لنيل رضا الله تعالى، فهي عبادة.

ومن الشجاعة الكبيرة التي تليق بالإنسان أن يتخلص من جميع الآمال في قلبه إلا الأمل برضا الله تعالى، لذلك كان الشرط الأساسي لقبول الأعمال عند الله هو الإخلاص.

إن الإخلاص هو القدرة على حفظ القلب من جميع المنافع الدنيوية من أجل نيل مرضاة الله سبحانه وتعالى. وأما ثمرة الإخلاص فهي "الإحسان"، وهو أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فيعلم بأن الله يراه.

والإخلاص يوصِل العبد إلى رضا الله تعالى، وذلك أعظم الخير. فالله يريد من أعمال العبد الإخلاص الموجَّه لنيل رضاه. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.[٨٦]

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.[٨٧]

٨٦ الزمر، ٢.

٨٧ الزمر، ١١.

وقد قال إبليس الذي طرده الله تعالى:

﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.[٨٨]

فالشيطان لا يكون مُسلَّطًا إلا على الضعفاء في شأن الإخلاص، وأما المخلصين فلا يؤثر فيهم أبدًا.

وقد قال الله تعالى ردًّا على إبليس:

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.[٨٩]

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾.[٩٠]

وقال الله تعالى في الحديث القدسي:

«الإخلاص سر من سري استودعته قلبَ مَن أحببتُ من عبادي».[٩١]

فالإخلاص في هذا الحديث القدسي يُعَدُّ وسيلةً لإكرام الله عباده من خلال كسب محبته، وهذا ما يشير إليه قول: "قلبَ مَن أحببتُ" في الحديث. لذلك، يجب أن تحل محبة الله في قلب

٨٨ الحجر، ٣٩- ٤٠.
٨٩ الحجر، ٤١-٤٢.
٩٠ الإسراء، ٦٥.
٩١ الديلمي، الفردوس، ٣، ١٨٧.

العبد كما ينبغي. والمحبة التي تخلو من الإخلاص والصدق لا تجدي أي فائدة، بل تكون سببًا للخسران الأبدي.

وذكر شاه نقشبند رحمه الله قصة في هذا الشأن، إذ قال:

جاء فتى إلى باب بنت السلطان وأفصح عن حبه لها. فلمَّا سمعت بنت السلطان بخبره، جاءت إلى الباب وقالت:

"خذ هذه الألف درهم، ولا تفصح عن شيء يضرك ويضرني".

ولمَّا أصرَّ الفتى، أعطته ألفي درهم.

وظل الفتى يصر، والبنت تزيد المال، حتى أعطته عشرة آلاف درهم، فقبِل الفتى. وعندئذ غضبت البنت وقال:

"كيف تدعي حبي وعيناك أعمَتهما الدراهم؟ ألا تعلم عقوبة مَن يفضلني على غيري؟"

ثم أمرت بقطع رأس الفتى.

ولمَّا سمع عارف بالله بهذا الخبر، أُغشيَ عليه، ولمَّا أفاق قال:

"أيها الناس، انظروا إلى ما أصاب مَن يدعي الحب في الدنيا! فما بالنا بالذي يدَّعي حب الله؟ ماذا سيصيبه في الآخرة وهو يدَّعي حب الله وقلبه مائل إلى غيره؟"

وقد عبَّر مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله عن مغزى هذه القصة بقوله:

"قيمةُ الإنسان بما يسعى إليه".

إن الإخلاص نعمة عظيمة لا بد منها من أجل جميع الأعمال، وفي ذلك قال ذو النون المصري رحمه الله: "الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم يغترون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم".[٩٢]

وبيَّن القرآن الكريم هذه الحقيقة بقول الله تعالى:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.[٩٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[٩٤]

الإخلاصُ صفاء النية حتى تكون العبادة مقبولة مباركة.

وقد خاطب مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله الذي يؤدي العبادات بلا إخلاص إذ قال:

"أيها الغافل! ليتك إذ سجدتَ لله تعالى وجَّهتَ وجهك له بإخلاص وعلمتَ معنى قولك: سبحان ربي الأعلى".

إن العبادات بلا إخلاص مليئة بالشرك والشوائب، فالسبيل لتطهيرها إنما هو الإخلاص، وإلا فلا سبيل من النجاة من الوعيد في قوله تعالى:

٩٢ البيهقي، شعب الإيمان، ٩، ١٨١.
٩٣ الصافات، ٤٠.
٩٤ المائدة، ١٠٥.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.[٩٥]

الإخلاص حفظ القلب من أن تكون غايةٌ من الأعمال سوى رضا الله تعالى، ولا يكون العمل "عملًا صالحًا" إلا إذا كانت غايته رضا الله تعالى. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.[٩٦]

وقال المفسرون عطفًا على هذه الآية الكريمة:

والإخلاص ينقي العملَ من الشوائب كما يُنقَّى اللبن من بين الفرث والدم. فنقاء اللبن خلوُّهُ من الفرث والدم، ونقاء العمل خلوُّهُ من أي غاية سوى رضا الله تعالى.

وقال جنيد البغدادي رحمه الله:

"الإخلاصُ هو تصفية العمل من الكدر".

قال الحواريون لعيسى ابن مريم: ما المخلص لله ﷻ؟ قال: الذي يعمل لله ﷻ، لا يحب أن يحمده الناس عليه.[٩٧]

٩٥ الماعون، ٤-٧.

٩٦ النحل، ٦٦.

٩٧ ابن حنبل، الزهد، ٤٩.

فالإخلاص هو أن تكون الأعمال خالية من أي درَن معنوي بدءًا بالرياء، لأن الرياء أشد خطر على الإخلاص، ومَن خلط الرياء في عمله، فقد وقع في الشرك الخفي واستحق العذاب.

وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه رجل استُشهِد، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار. ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه، ثم أُلقي في النار».[٩٨]

فهذا الحديث الشريف يبيِّن أن "الإخلاص" هو الشرط الوحيد لقبول الأعمال عند الله تعالى. وهذا يعني أن المقصود إنْ لم يكن

٩٨ مسلم، الإمارة، ١٥٢.

رضا الله تعالى، فلا فائدة من العمل وإنْ كان مقبولًا في ظاهره مثل الموت في سبيل الله، وطلب العلم، والإنفاق.

لمَّا سمع أبو يزيد البسطامي رحمه الله قولَ الله تعالى:

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[٩٩]، بدأ يبكي وقال: "هذا لوم من الله لعباده، فهو يقول: منكم مَن يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة، فأين الذين يريدونني؟"

فالإيمان الحقيقي ليس كلمات، والأعمال ليست حركات. الإيمان الحقيقي إيمانٌ بالخالق من أعماق القلب، وتعلُّقٌ به، وقبولُ أوامره ونواهيه بسرور ورضا، وهذا يقتضي خلو القلب من أي هدف سوى رضاه تعالى لدى أداء أي عمل صالح، وإلا كان العبد في حال من النفاق. وإذا لم يتخلص من هذه الصفة، فسيكون عرضةً لغضب الله.

يقول الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾.[١٠٠]

فهذا يعني أن الإيمان والأعمال التي يرغب الله فيها هي التي تأتي من قلب صادق وتكون فقط لرضاه.

والقصة التالية تبيِّن التوبة النصوح من قلب صاف:

٩٩ آل عمران، ١٥٢.

١٠٠ الجاثية، ٢٣.

فعن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري، عن أبيه، أن عمرو بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله، إني سرقت جملًا لبني فلان، فطهِّرني، فأرسل إليهم النبي ﷺ فقالوا: إنا افتقدنا جملًا لنا، "فأمر به النبي ﷺ فقُطِعَت يده" قال ثعلبة:

"أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول: الحمد لله الذي طهَّرني منكِ، أردتِ أن تُدخِلي جسدي النار".[١٠١]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».[١٠٢]

وقد بيَّن الله تعالى أنه لا ينظر إلى كثرة العبادات أو قلتها بل إلى الإخلاص فيها في قوله:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.[١٠٣]

وهو سبحانه وتعالى يمتحن عباده بصور مختلفة كي يرى الإخلاص في أعمالهم، وقد قال في كتابه الكريم محذِّرًا المؤمنين

١٠١ ابن ماجه، الحدود، ٢٤.
١٠٢ مسلم، البر، ٣٤.
١٠٣ الملك، ٢.

الذين تعرضوا لمختلف أنواع التعذيب إذ آمنوا، كي يحافظوا على إخلاصهم وصدقهم ويثبتوا في دينهم:

﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.[١٠٤]

غير أنه ينبغي فهم جوهر الإخلاص فهمًا سليمًا، وليس من الصواب أن يكف بعض من الناس عن أعمال الخير خشية الرياء أو انعدام الإخلاص فيها. لذا ينبغي السعي لإتمام الأعمال بقلب صاف وصادق على قدر الاستطاعة، وليس تركها. لأن طريق الإخلاص طريق شاق يقتضي مجاهدة النفس وأهواءها. والإخلاص كما ينبغي هو قمة في الرقي البشري، والوصول إلى هذه القمة يكون خطوة بخطوة، وفي هذا الطريق ينبغي السعي والتضرع إلى الله من أجل التوفيق.

إن أفضل الطرق لنيل قلب سليم ببلوغ الإخلاص وحفظ القلب من الأهواء هي أن يتحلى المرء بما يلي:

١. نيل "الإحسان" أي الشعور بالمراقبة الإلهية المستمرة كي يكون قلبه مع الله دائمًا بالذكر.

٢. الحفاظ على محبة النبي ﷺ والصادقين والصالحين في القلب والاقتداء بأحوالهم بالرابطة.

١٠٤ العنكبوت، ١-٣.

٣. عيش الأخوَّة في الدين بحضور المجالس الروحانية، وترقية القلب بالرأفة على المحتاجين والمحرومين.

٤. الرحمة بالمخلوقات كلها بخدمتهم.

٥. تغذية الجسم بالطعام الحلال، فإذا حرص المرء على تناول الطعام الحلال، امتلأ قلبه بالرغبة في طاعة الله، وصار جسمه مصدر خير.

اللهم أكرمنا بالإخلاص الذي هو سر من أسرارك، واجعلنا من المقتدين بأوليائك في حسن عبوديتهم لك...آمين!



الخوف والرجاء

الخوف والرجاء

تمضي حياة الإنسان في تقلب بين "الخوف" و"الرجاء". فلا بد أن يعيش المسلم في توازن بين الخوف والرجاء في قلبه، ذلك أن الإفراط في الخوف يؤدي إلى "اليأس"، والإفراط في الرجاء يؤدي إلى "التواكل وحسن الظن بالنفس".

لذلك منع الله تعالى الثقةَ بالنجاة من عذابه واليأسَ من رحمته. وقال في كتابه العزيز:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.[١٠٥]

اليأس أن يرى المرء نفسه خارج دائرة عفو الله تعالى وغفرانه، وهذا يعني إنكار تجليات رحمة الله وقدرته وعظمته.

أما الأمن المطلق فهو ألا يبالي المرء باسم الله "القهار"، أو أن يستخف عذابه.

لذلك على المرء ألا يوصِل الخوف من الله إلى اليأس المطلق، ولا يجعل الرجاء أمنًا مطلقًا. فلا بد له من التوازن بين الحالين. ومن

١٠٥ السجدة، ١٦.

العسير الحفاظ على هذا التوازن في الأحوال القاهرة مثل كوراث الطبيعة.

على المؤمن أن يكون في حال إنْ قيلَ له فيها: "لن يدخل الجنة إلا واحد؟" قال: "هل هو أنا؟" وإنْ قيل له: "لن يدخل النار إلا واحد؟" قال: "هل هو أنا؟"

ولا شك أن الله تعالى يؤدب عباده بالكوارث والمصائب التي تنزل من السماء أو تخرج من الأرض كي يجعل خوفه في قلوب عباده ويحميهم من الوقوع في الأهواء والشهوات. فمن الغفلة والحماقة أن يظن المرء أن هذه الكوارث والمصائب تقع مصادفة.

إذ ثمة حكم وعبر من الكوارث التي تضرب من حين لآخر وتؤدي إلى الدمار والخراب وموت الآلاف. وإلا لما كان معنى للقدوم إلى هذه الدنيا ولا للنظام الدقيق الذي وضعه الله في هذا الكون. فهذه الكوارث في الوقت نفسه من تجليات عظمة الله وقدرته.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

"هذا العالم الذي نعيش فيه محدود فان. والأصل هو دار الآخرة الخالدة. فاعقلْ ولا تجعل جمال هذا العالم الفاني وشكله العابر وصورته الزائلة حجابًا يحجب قلبك عن الآخرة.

إذا كان العالم في نظرك كبيرًا لا حدود له، فاعلم أنه ليس ذرةً أمام قدرة الله. فافتح عينيك وانظر إلى الزلزال والأعاصير والسيول كيف تترك الأرض حين تضربها".

لذلك علينا ألا نكتفي بالنظر إلى ظاهر الكوارث، بل نستنتج العبر منها. والكون مبرمج بنظام إلهي دقيق من الذرات إلى المجرات. فكل شيء يسير بقدرة الله التي تتجاوز إدراك الإنسان، من الشمس والأجرام في الفضاء إلى الإلكترونات في الذرات.

وكل شيء يخضع للإرادة الإلهية. وحتى الكافر يعترف بهذه الحقيقة في ضميره، فلا يتوقع أن تزيد سرعة الأرض أو تقل، ولا تزيد عدد ساعات اليوم أو تقل. ولكنه يرفض هذه الإرادة الإلهية اتباعًا لهواه، فيصف قوانين الكون على أنها "قوانين الطبيعة" غافلًا عن الحقيقة التي يقبلها في قلبه. وما قوانين الكون في أصلها إلا ما نقول عنه: "عادة الله" أو "سنة الله".

لا ريب أن هذا العالَم عالم الأسباب. فالله مسبِّب الأسباب قد ربط حدوث أي أمر ببعض الأسباب. ولو كانت الإرادة الإلهية تجلت بلا سبب، لما أطاق الإنسان ذلك التجلي، ولما كان العالَم عالَم امتحان.

لذلك يحرص أهل الإيمان والمعرفة على الانتباه إلى المسبِّب لا السبب. ومَن لم ينتبه لذلك، قضى حياته غافلًا، ولم ينظر إلا إلى الأسباب الظاهرة.

يجعل الله سبحانه وتعالى بعض الأحداث الطبيعية التي نشهدها خارج البرنامج الإلهي الذي عهدناه، أي إنها تقع عقوبة مادية ومعنوية للكافرين والظالمين. فتزول الصفة النافعة من النار والماء والهواء والعناصر الطبيعية الأخرى لتحل محلها صفة التدمير والإهلاك.

فالغفلة عن رؤية الغاية الإلهية أو إذن الله وراء الأحداث الطبيعية تعني الوقوع في منظور ضيق أعمى. وقد قال مولانا جلال الدين الرومي محذرًا من هذا الأمر:

"لا تنسَ أن هذه الدنيا مثل قشة أمام قدرة الله. وإرادة الله ترفعها حينًا وتهبط بها حينًا آخر. وتجعلها سليمة تارة وناقصة تارة أخرى. وتحملها إلى اليمين مرة وإلى الشمال مرة أخرى. وتجعلها وردة يومًا وشوكًا في يوم آخر".

أراد الله أن تكون هذه الدنيا دار ابتلاء، لذلك أظهر فيها "قهره" و"لطفه" معًا.

ويتجلى لطفه حينًا على صورة دعاء صادق وتضرع وصدقة وأعمال صالحة.

ويتجلى قهره بسبب أكل الحرام والظلم والضلال المتفشي. وفي بعض الأحيان يتجلى لاختبار لصبر العبد وتوكله وتسليمه، كي يرتقي معنويًّا. يقول الله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.[١٠٦]

وابتلاء الأنبياء على الرغم من كثرة طاعتهم هو من هذا الباب.

ويلفت انتباهنا هنا ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام:

أراد الله تعالى أن يبتليه، فسلب منه أنعامَه بسيل، وزرعَه بريح، وأولادَه بزلزال. ثم أصابه بمرض شديد، ولكن أيوب ظل هادئًا ومتوكلًا على الله في كل حال، ولم يشكُ. وبسبب صبره وتسليمه شفاه الله وأزال همه، وردَّ له أهله وماله.

يُظهر هذا المثال أنه من الطبيعي وجود الأطفال الأبرياء في بعض الكوارث، وكذلك الصالحين، والعباد الذين يريد الله أن يغفر ذنوبهم. وفي هذا قال رسول الله ﷺ:

«إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها».[١٠٧]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، أو حطَّ عنه بها خطيئة».[١٠٨]

---

١٠٦ البقرة، ١٥٥.

١٠٧ ابن حبان، صحيح، ٧، ١٦٩/ ٢٩٠٨.

١٠٨ مسلم، البر، ٤٧.

فلا ينبغي أن يؤدي تجلي القهر إلى يأس المؤمن، ولا تجلي اللطف إلى إحساسه المطلق بالأمان والاطمئنان.

فالزلازل والحرائق والحروب والأوبئة والجفاف وأضدادها من الرحمات والبركات والنعم التي تعد كلها من سنن الله في كونه تكون وفقًا لقلوب العباد.

فإذا كان الناس أغلبهم على الصراط المستقيم، كان المطر بركةً ورحمةً عليهم، وسببًا في سرورهم. وأما إذا كانوا يميلون إلى أهواء نفوسهم وكان الشر يحكمهم، أي ساد العصيان في قلوبهم، كان المطر نقمةً عليهم، أو حُرِموا منه تمامًا.

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.[١٠٩]

والله تعالى ليس بظالم، حاشاه. وكثير من الكوارث تحدث لإفراط العباد في عصيانهم وظلمهم، وهذه حقيقة لا مجال للشك فيها. فلا مفر من العقاب لكل مَن يخالف نظام الله في كونه.

يقول الله تعالى:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.[١١٠]

١٠٩ الرعد، ١١.

١١٠ الأنعام، ٥٩.

لا ريب أنه من الضروري اتخاذ التدابير للتصدي للكوارث المحتملة، ثم التوكل على الله لا التواكل.

رُوِيَ أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج إلى الشام حتى إذا كان بِسَرْغ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار عمر من معه من المهاجرين والأنصار فاختلفوا، فقال: بعضهم خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فلم يختلف عليه منهم رجلان. فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر بن الخطاب ﷺ في الناس:

إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه.

قال أبو عبيدة بن الجراح: أفِرارًا من قَدَر الله؟

فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله.[١١١]

فعلينا بالتدابير، ولكن علينا أن نعلم أيضًا أن التدبير لا يمنع القضاء والقدر. ومَن اعتقد غير ذلك كان مصيره مصير قوم ثمود الذين قال الله تعالى فيهم:

١١١ انظر: مسلم، السلام، ٩٨.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾.[١١٢]

عندما نرى الأمور في هذا السياق يظهر لنا أن الاعتماد فقط على بناء المباني القوية والأماكن الآمنة ليس كافيًا للنجاة من بعض الكوارث. فزيادة الفساد والفتن والكفر والعصيان والذنوب والانحرافات على وجه الأرض تجلب سخط الله تعالى، وتؤدي إلى فساد البر والبحر، فتتعاقب الكوارث. وهذه الحقيقة ذكرها الله تعالى في قوله:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[١١٣]

ويلفت انتباهنا هنا كلمة "بعض" للإشارة إلى أن العقاب الذي يتعرض له الناس في الدنيا هو جزء من العقاب الكلي، وأن العقاب الحقيقي في الآخرة. وتشير أيضًا إلى أن العقاب الدنيوي يحمل طابع التنبيه والإنذار، ويهدف إلى منع الناس من الانحراف.

فإذا وقعت مثل هذه الكوارث، فعلينا اللجوء إلى الله أكثر من الأوقات الأخرى ونداوم على الاستغفار. فالله يقول في القرآن الكريم:

١١٢ هود، ٦٧-٦٨.

١١٣ الروم، ٤١.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.[١١٤]

ومع الاستغفار ينبغي لنا أن نصلي صلاة الحاجة، وهي ركعتان لطلب مدد الله بالرحمة والشفقة حتى يصرف عنا البلاء وينزل الخيرات. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.[١١٥]

وعن عبد الله، عن النبي ﷺ قال:

«مَن عزَّى مصابًا فله مثل أجره».[١١٦]

وهنا نذكر رجفة طور سيناء التي قال الله تعالى عنها:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.[١١٧]

فنجد في هذه الآية ابتلاء الله الأنبياء أيضًا، فهم مروا بمختلف أنواع البلايا والمصائب. وامتحن الله قلوبهم في مسائل مثل

١١٤ الأنفال، ٣٣.

١١٥ البقرة، ١٥٣.

١١٦ الترمذي، الجنائز، ٧١/ ١٠٧٣.

١١٧ الأعراف، ١٥٥.

الاعتماد عليه، والاستسلام لقضائه، والرضا بمشيئته، والخوف منه، ومحبته. وفي النهاية ظلوا جميعًا محافظين على حال "الخوف والرجاء".

اللهم احفظ أمة محمد من الكوارث والمصائب والعذاب والغضب، واجعلنا من زمرة الصابرين عند الخوف والرجاء في اليسر والعسر، وأنزل على قلوبنا السكينة والطمأنينة!...آمين!



الغفلة أن يعمي الإنسان نفسه بوضع أصابعه أمام عينيه،
ويركض في حقل ألغام،
ويتجول بلا مبالاة على حافة الهاوية...

الغفلة

الغفلة

بينما رجل مسافر في صحراء شاسعة، رأى حيوانًا وحشيًّا يجري إليه، فعلم أن الحيوان سيمسك به مهما أسرع، فقفز في بئر من غير أن يفكر بحل آخر، وأثناء سقوطه في البئر أمسك بغصن يخرج من جدار البئر بكل ما أوتي من قوة كي لا يسقط وتأكله الثعابين في قاع البئر.

ثم رأى فأرين أحدهما أسود والآخر أبيض، فبدآ يقرضان الغصن. فاشتد اضطراب الرجل وكاد يفقد وعيه. وبينما هو على هذه الحال رأى خلية نحل بها عسل على الطرف الآخر من جدار البئر، فقال في نفسه:

"عسل في مثل هذا المكان؟ سأذوقه وأخرج من البئر".

فانشغل الرجل عن الخطر العظيم المحدق به بالعسل، ونسي ما هو فيه، ولم يستطع أن يبحث عن مخرج. لقد ذهب عقله بطعم العسل، ولم يعد يرى إلا العسل. غير أن طمعه لم يكن له أي تأثير في الفأرَين اللذَين يقضمان الغصن، أو الثعابين المنتظرة في الكمين. وأخيرًا انقطع الغصن وسقط المسافر الغافل في قاع البئر وهلك...

في هذه القصة ترمز البئر إلى حياة الدنيا، والثعابين إلى الصفات النفسية الدنيوية السيئة، والعسل إلى اللذات الدنيوية الخداعة، والغصن إلى العمر، والفأر الأبيض والأسود إلى الليل والنهار، أي الزمن الذي يذيب العمر، والمسافر هو الإنسان الذي يأتي إلى هذا العالم امتحانًا، فإذا وقع في الغفلة، فلا ينتظره إلا الهلاك.

فعلى الإنسان أن يعرف أن أهم شيء له هو الحفاظ على نفسه من كل غفلة تجلب الندم في يوم من الأيام، وأن يسعى نحو السكينة الأبدية والسرور والنجاة...

أفلا يدعو المقصود من خلق الإنسان والظروف التي يعيش فيها إلى ذلك؟

ولا شك أن كل مخلوق يجد سعادته من خلال العيش وفقًا للغاية من خلقه. والإنسان أشرف مخلوقات الله في الكون يجد السعادة بفهم الغاية من خلقه، وجعل سلوكه وفقًا لهذه الغاية، وبحذره من الأخطار التي تأتي بها الدنيا الفانية وأهواؤها الخداعة. وهذا يقتضي الوعي بطبيعة الكون الذي نعيش فيه، وبرزق مَن نحيا، والعيش حياة تزينها العبودية والعمل الصالح والأخلاق الحسنة.

وإلا كانت الغفلة الشديدة كما في المثال السابق حين يعيش الإنسان الذي خُلِق في أحسن تقويم بعيدًا عن طاعة الله جاهلًا ذاته وغير مدرك لجوهر أصله. وهذا هو الاغترار بالحياة والبؤس الشديد.

إن الاغترار بالدنيا أن يكون الإنسان غافلًا لا يعرف حقيقة نفسه، ولا حالها في العالَم، ولا الحكمة من هذه الحياة التي تنتهي بالموت. والوقوع في هذا الفخ يعني فقدان فرصة الكسب الأبدي في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة.

وكيف لنا أن نتخيل متفكرًا متدبرًا لا يرغب في فهم سر المجيء إلى الدنيا واحدًا تلو الآخر والامتحان فيها ثم الخروج منها إلى عالَم مجهول.

فلا يمكن إدراك شرف الإنسان ومكانته وفهم معنى الحياة والموت إلا بالخلاص من الغفلة. وهذا هو عمل التفكير السليم الذي يستنير بنور الله، والقلب الناضج، والضمير سليم.

والجهل، والشهوة، والكبر، والغرور، والطمع، والبخل، والحسد، والإسراف، والغضب، كلها مظاهر مهلكة للغفلة. والتخلي عن شرف الإنسانية بالإنهماك في هذه الصفات لَهو خسارة وخداع كبير. والذنوب التي تُرتَكب نتيجة الغفلة واتباع الرغبات النفسية تكون حجابًا يحجب رؤية الحق والحقيقة ويجلب العار لكرامة الإنسان.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.[١١٨]

١١٨ الزمر، ٢٢.

لا شك أنه حين تغيب الأخلاق في الضمير، تغيب الرقة واللطافة في القلب، وتضعف القدرة على الحفاظ على الاستقامة. فتُستساغ الذنوب، ويعمى المرء عن رؤية عيوبه. والغافلون الذين يعيشون تحت سيطرة النفس لا تزعجهم أخطاؤهم، كالذي لا يشمئز من الأكل بأصابعه المتقيِّحة. فهم لا يدركون الأذى الذي يتعرضون له ويؤذون به الآخرين. لأن الغافلين يمسون صمًا وبكمًا وعميًا أمام الحق والحقيقة. ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.[١١٩]

وصف مولانا جلال الدين الرومي بأسلوب فكاهي غفلة الزائر والمريض في زيارة بعيدة عن رضا الله، ومملوءة بالرياء، ومن أجل المنافع النفسية فقال:

قال رجل عاقل لصديق غافل أصم: «ألم تعلم أن جارك مريض؟»

فقال الغافل الأصم: «هبْ أني ذهبت لزيارة جاري. كيف سأفهم ما يقوله بهذه الأذن الصماء؟»

ثم فكَّر وقال: «وعندما يكون الإنسان مريضًا، يكون صوته خافتًا. وعندئذ لن أفهم أي كلمة».

ثم قال: «ولكنه جاري، لا بد أن أذهب. وإلا سيعيبني الجميع ويقل شأني».

١١٩ البقرة، ١٨.

ثم قال وهو يضع خطته: إذا ذهبتُ لزيارته، ورأيت شفتَيه تتحركان، سأحاول تخمين ما يقوله. ولن أُظهِر له أنني لا أسمعه. وهو على أي حال لن يدرك ذلك بسبب الألم الذي يعاني منه. أولًا سأقول:

«كيف حالك يا جاري المكلوم؟»

سيجيب بلا شك: «بخير، بخير!»

وسأقول: «الحمد لله!»

ثم سأقول: «ماذا أكلت؟»

سيقول: «شربت شرابًا، أو حساء العدس».

وسأقول: «بالصحة والعافية!»

ثم سأقول: «حسنًا، مَن يأتي من الأطباء؟ مَن يعالجك؟»

سيقول: «فلان يأتي».

وسأقول لأرفع معنوياته: «هذا الطبيب ماهر. أحسنت لأنك دعوته. عندما يأتي تتحسن الأمور».

خطَّط الرجل الأصم لهذه المحادثة التخيلية والتخمينات والأسئلة والأجوبة، ثم قام وذهب لعيادة المريض.

فقال كما خطط: «كيف حالك يا جاري المكلوم؟»

فأجاب المريض الذي كان يعاني من ألم شديد متأوهًا:

«في أسوء أحوالي، كأنني أموت».

ولكن الأصم لم يسمع جواب، فقال: «الحمد لله!»

فغضب المريض من قوله، ولم يفهمه وقال في نفسه: «يبدو أن هذا الجار يتمنى لي الموت!»

ثم سأل الأصم: «ماذا أكلت؟»

فقال المريض منزعجًا: «السم والزقوم».

فقال الأصم: «بالصحة والعافية!»

وعندئذ اشتد غضب المريض، لأنه ما كان حكيمًا.

ثم قال الأصم: «حسنًا، مَن يأتي من الأطباء؟ مَن يعالجك؟»

فبلغ غضب المريض ذروته، ولم يحتمل وصرخ غاضبًا:

«من يأتي؟ عزرائيل يأتي! اذهب من هنا قبل أن تفقدني صوابي!»

لكن الأصم ظل يقول ما أعد له. فقال لجاره المريض هذه المرة وهو يهز رأسه بهدوء:

«هذا الطبيب ماهر. أحسنت لأنك دعوته. افرحْ افرحْ».

ثم قام من عند المريض مسرورًا بأداء واجبه.

وقبل أن يخرج قال: «أحسنتُ لأنني عدتُ جاري المريض، وأدخلت السرور في قلبه».

خرج هذا الأصم الأحمق الغافل من هذه الزيارة بخسارة كبيرة، ولكنه من غفلته ظن أنه خرج بمكسب.

وتنهد المريض بعد خروج الأصم وغفل أن جاره أصم فقال:

«يبدو أن هذا الجار الذي كنا نظنه طيبًا، هو عدونا اللدود! وا أسفاه، لم نعلم أنه مصدر الأذى والمتاعب».

وظل يدعو عليه غاضبًا، وقال: «عيادة المريض يجب أن تكون لجبر خاطره. لكن هذا الرجل، لم يأتِ لرضا الله، بل لرضا الناس، وليس لسؤالي عن حالي، بل لكسر قلبي، ولإظهار العداوة، وإلحاق الأذى، وكأنه جاء لينتقم مني! أراد أن يرى عدوه في أضعف حال ليفرح قلبه الشرير ويُسَر! مع أنني لم أؤذه قط».

يقول مولانا جلال الدين الرومي تعليقًا على هذه القصة:

«أشعل الأصم نيران الغضب في قلب المريض وهو يسعى لمواساته بكلمات تخمينية مختلفة. ذهب لزيارة المريض من أجل الشهرة، فأقحم نفسه في الخطيئة».

«وضاعت حقوق الجيرة التي استمرت سنوات طويلة لقياسات خاطئة من ذلك الأصم الغافل».

«أما المريض فغلبه غضبه، ولم يستطع الصبر فحُرِم من نعم الله. ووقع في حفرة سوء الظن وأساء إلى نفسه بدلًا من أن يتمسك بحسن الظن ويبحث عن الحقيقة».

«ثمة بيننا كثيرون مثل هذَين الرجلَين، تكون عباداتهم لغير رضا الله، بل لمنفعة أنفسهم. يسعون لكسب الثواب ثم الجنة بعبادات تختلط فيها أهواء النفس».

"فهذه الأعمال التي يقومون بها على أنها عبادات تبيت ذنبًا خفيًّا وشركًا باطنًا، لأن العبادة التي يُطلَب منها غير رضا الله هي ذنب. فالصلاة التي تُؤَّدى رياءً، يكون باطنها ملوثًا بالشرك الخفي وإنْ بدت نظيفة طاهرة من الخارج".

ولا يقتصر وجود هؤلاء الغافلين على عصر من العصور، فهُم في كل عصر يرون الأبيض أسود والأسودَ أبيض، ويظنون رغباتهم النفسية كأنها الجنة، ولكنهم يغفلون عن يوم الحساب المرير.

ويصور مولانا جلال الدين الرومي غفلة الميل الشديد إلى الدنيا بقوله:

"إذا شربت في هذه الدنيا ألذ الشراب وأكلت أطيب الطعام، فاعلم أنك قد أكلت وشربت في الحلم. وعندما تستيقظ، ستجدك جائعًا عطشانًا في هذه الدنيا!.. فما لك من فائدة من ذلك الشراب الذي شربته والنعم التي أكلتها في الحلم. فالدنيا مثل حلم النائم. الدنيا ونعمها كشيء يرغب به النائم في الحلم، فيُعطى له، ثم يستيقظ فلا يجد أثرًا مما ناله".

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾.[١٢٠]

إن الأذن التي ذُكِرَت في القصة قد تستطيع سماع بعض الحروف والكلمات وفهمها، وكذلك العين قد تعتقد أنها ترى شيئًا. ولكن ماذا عن أذن القلب التي يجب عليها سماع الأسرار الخفية؟ وأين عين القلب التي ينبغي لها رؤية مظاهر قدرة الله تعالى في كونه؟ إذا كان القلب ميتًا والعين كفيفة، فهل لذلك إلا أن يجعل الإنسان نفسه منكوبًا في الدنيا والآخرة؟

يُروَى أن يونس عليه السلام قال لجبريل:

"أرني أعبد الناس على الأرض"، فأراه رجلًا تعفَّنت يداه وقدماه بمرض الجذام، وفقد بصره. وكان يقول:

"يا رب، ما أعطيتني بهاتين اليدين والقدمَين، فهو من فضلك. وما أبعدتني عن شيء فهو من فضلك. يا رب، ما أبقيت في نفسي سوى رغبة واحدة، وهي الوصال معك".

فنبضات القلب عندما تكون لرضا الله، تختلف النيات، وتكون الأعمال التي توصِل صاحبها إلى الجنة.

لذا ينبغي تطهير القلب وتزكية النفس للخلاص من الغفلة، ولا بد أن يكون القلب قادرًا على رؤية عظمة القدرة والحكمة الإلهية في الكون.

١٢٠ الجاثية، ٢٣.

يقول أهل العلم:

"أيها المسافر في طريق المعرفة! لن تتقدم في هذا الطريق إلا إذا بدَّلت العجلة بالصبر، والنسيان بالذكر، والنقمة بالشكر، والمعصية بالطاعة، والبخل بالسخاء، والشك باليقين، والرياء بالإخلاص، والكذب بالصدق، والغفلة بالتفكر".

وإلا فإن الإنسان لن يتخلص أبدًا من الغفلة. يحسب بعض من الناس أن كأس الماء بين أيديهم بحر. فتكون أعينهم معميَّة عن الحقائق الكثيرة والنعم المتنوعة، وتبقى قلوبهم محرومة في الدنيا والآخرة. هؤلاء هم الأموات وهم في الحياة.

فما أشد حماقة مَن يعيش غافلًا مشغولًا بأمور تضر آخرته وتضيع عمره وقد خُلِق في أحسن تقويم.

قال الحسن البصري رحمه الله:

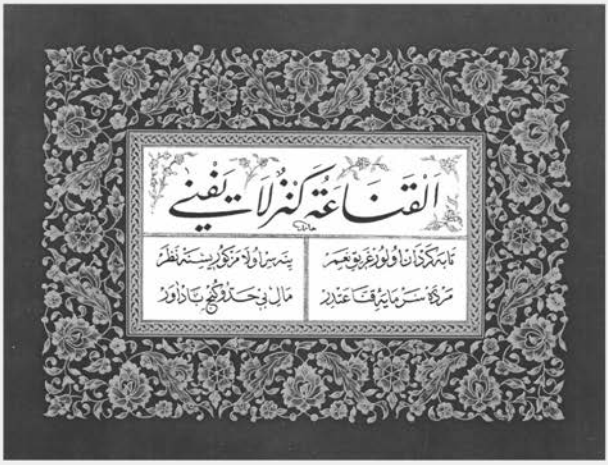
"إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام. من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر فى العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضلَّ، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فَهِم، ومن فهم عَلِم، ومن عَلِم عمل".

فعلينا في هذا العالم الفاني ألا ننشغل عن الخالق ولا ننسى الغاية من خلقنا. يجب أن نكون في حال من التفكر والتدبر ومحاسبة النفس متمسكين بالكتاب والسنة.

وينبغي لأشرف المخلوقات أن يعيش في قرب بقلبه من خالقه، ويعبد ربه الذي يكرمه بهذه الحياة، ويغفر ذنوبه، ويطلع على أسرار قلبه. إن للعبادات أوقاتًا معينة، ولكن الإيمان والعبادة يشملان الحياة كلها.

اللهم ألحِقنا بزمرة الصالحين الذين يسيرون على الطريق المستقيم وقلوبهم حية....

آمين!



القناعة كنز لا يفنى

الطمع والحسد والقناعة

الطمع والحسد والقناعة

خُلِقَ الإنسان ميَّالًا إلى الخير والشر في فطرته، وعنده استعداد لكليهما، وما ذلك إلا من مقتضيات امتحانه في الدنيا بتقدير الله تعالى. غير أن الذين يصلون إلى أقصى درجات الخير والجمال هم نوادر، لهذا أجاب حافظ الشيرازي عن سؤال "ما الإنسان؟" بقوله: "هو قطرة دم، وألف هم!"

فالذين يتخلصون من القلق والهموم التي تنشأ عن الرغبات السلبية التي لا يمكن التحكم فيها، والشهوات التي لا تُكبَح هم الاستثناء في هذه القاعدة العامة.

أراد الله تعالى أن يعيش الناس في مجتمعات، وقسَّم الأرزاق بينهم وجعل اختلافًا في نعمه عليهم حتى يكون اعتماد بعضهم على بعض. وهذا التنوع الذي أراده الله تعالى في الطبيعة البشرية والذي لا يمكن التغاضي عنه هو جزء أساسي من امتحان الإنسان في الدنيا. والحاجة إلى التعاون الاجتماعي هو مظهر لهذا التنوع الطبيعي في الخلق. ولكن هذا التنوع في بعض الأحيان يؤدي إلى ظهور بعض الميول السيئة غير المرغوبة مثل الطمع والحقد والحسد.

إن الطمع إذا لم يُكبَت، أدَّى إلى الحسد. وإذا أُسِرَ الإنسان في دوامة الطمع والحسد، وقع في النهاية في الخسارة والاضطراب. وهذه الميول السيئة تؤثر في جوهر الإنسان، وتُعَد مخالفةً لبرنامج تقدير الله، فهي جريمة تمرد. إنها مرض نفسي خطير لا يدركه معظم الناس ولا يعون شدة تأثيره.

والشهوات التي تغمر الإنسان في دوامة الطمع تجعله ينسى الآخرة ويرتبط بحب الدنيا ارتباطًا شديدًا، فلا يقدر على التغلب على رغبات نفسه ويصبح عبدًا للماديات. إن عين الطمع لا تشبع أبدًا، فيعيش صاحبها في فقر مستمر، ويعاني من جوع روحي. وكلما حقق شيئًا، زادت شهوته وطمعه بالمزيد.

إن ظهور الحسد في النفس يكون متعدد الأوجه. فالحسد يعطل الميول الطبيعية والسليمة للمرء، ويضعف عقله، ويهزم الإيمان والتوكل على الله. لهذا حذر النبي ﷺ من الحسد، ووصفه بأنها: "تحلق الدين".[١٢١]

يريد الحسود أن تُسلَب النعمة من الذي يحسده وتُعطَى له. وإنْ لم يكن ذلك ممكنًا، قال: "لا لي ولا له!"

لا يحب الحسود أن يرى صاحب النعمة يستمتع بنعمته أو موهبته، ويرغب في زوالها. وتملأ قلب الحسود مشاعر الحقد،

١٢١ الترمذي، القيامة، ٦٥/ ٢٥١٠.

والخيانة، والانتقام، والخداع تجاه من يحسده. ويقضي حياته القصيرة في وساوس وقلق.

أما الأولياء الذين يعيشون حياتهم على التقوى، فإنهم لا يرون حتى الغبطة في أمور الدنيا أمرًا محمودًا. إذ يرون أن الغبطة ذاتها تشكل ظلًّا لحسد أصحاب النعم. والوساوس مثل "لو أُعطي لي ما أُعطي له..." تعد اعتراضًا على قسمة الله وعدم الرضا بالتقدير الإلهي. ولا يعلم الإنسان أن الحال الذي يعيشه قد يكون هو الأفضل له.

قال معروف الكرخي رحمه الله:

"العاقل مَن ينظر إلى الأغنياء بالنصح لا الحسد، وينظر إلى الفقراء بالتواضع لا التكبر، وينظر إلى النساء بالشفقة لا الشهوة".

كلما رقَّ القلب وازداد لطفًا، تلاشت كل الرغبات الدنيوية والحسد. وهكذا تختلف قيمة النعمة على قدر مستوى نضج القلب:

ففي الشريعة: "مالك لك، ومالي لي".

وفي التصوف: "مالك لك، ومالي لك".

وفي الحقيقة: "لا مالك لك ولا مالي لي، بل كل شيء لله".

بينما كان شقيق البلخي يمر بمقبرة، نظر إليها وقال لمن معه: "أغلب هؤلاء كانوا كاذبين..."

فسألوه: "لماذا؟"

فقال: "ألم يقولوا وهم أحياء: لدي مال، لدي أنعام، لدي منزل، لدي أقارب، لدي بساتين وحدائق؟ لكن الآن ترون بأنه لم يكن لهم كذلك!"

إن إيمان الطماع دائمًا في حال ضعف بسبب الحسد، ولذلك عالمه الداخلي أشبه بزنزانة مظلمة. يتعجب مولانا جلال الدين الرومي من حال الطماع ويقول:

"ما بال الإنسان يصبح عبدًا للذهب وللمال؟ ما حال ما لا ينفق في سبيل الله؟ إذا لم تكن الذلة في أسر قلب الإنسان بمال الدنيا وتلوِّيه كالأفعى على بابها سببًا في ذهابه إلى السماء فارغ اليدين، فما هي؟"

يقول نقشبند رحمه الله:

"من لبس ثوب الصدق، صار على رأس الأغنياء جميعًا وإنْ لم يكن لديه مال. ومَن وُسِمَ بالعداوة، فهو على رأس المتسولين وإنْ كانت لديه كنوز الدنيا بأسرها".

رأى إبراهيم بن أدهم رحمه الله رجلًا يشتكي من الفقر، فقال له: "هل أعطوك الفقر بلا ثمن حتى تشكو منه؟"

فقال الرجل متعجبًا: "يا سيدي! وهل يؤخذ الفقر بثمن؟"

فأجاب: "نعم! عندما رأيت قيمة الفقر، أعطيت بلخَ كلها ثمنًا له راضيًا مسرورًا".

والمقصود هنا هو كسر شهوة النفس والغنى بالقناعة، فالصابرون من الفقراء والشاكرون من الأغنياء سواء في رضا الله.

قال رسول الله ﷺ واصفًا طمع الإنسان:

«لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».[١٢٢]

إن الطماع يفارق الدنيا بثلاث صفات:

١. لا يشبع مما جمع

٢. ولا يجد ما تمنى

٣. ويكون محرومًا من الروحانيات.

إن الطمع الذي يملأ قلب الطامع لا يترك أي مجال لحب الله والإخلاص. وما أتعسه أن يمضي عمره في حمل هموم جمع المال، فيكون مآله إلى خسارة شديدة.

يقول الله تعالى في حياة الدنيا التي لا يشبع منها الطماع:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.[١٢٣]

إن الطمع الذي يهلك قلب الإنسان في دوامة الشهوات يذكِّرنا بوصف الله لجهنم:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.[١٢٤]

١٢٢ البخاري، الرقاق، ١٠؛ مسلم، الزكاة، ١١٦-١١٩.

١٢٣ النازعات، ٤٦.

١٢٤ ق، ٣٠.

ويقول الله تعالى في آية أخرى عن الطامعين:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.[١٢٥]

إن تاريخ الحسد قديم قِدَم خلق الإنسان. بدأ الحسد حين رأى إبليس أن آدم عليه السلام مخلوق من طين فاعترض على ذلك. وعلى الرغم من أن إبليس كان في مكانة عالية، إلا أنه كان من الجن الذين لديهم النفس، فلم يدرك الحكمة الإلهية بتأثير هذه النزعة في فطرته، فخدعته فكرة أن آدم مخلوق من طين، وقارن بينه وبين آدم، فحسده. وهذا أول وأروع مثال يبين أن العلم الظاهري غير كافٍ لفهم الحكمة الإلهية.

ثم نذكر قصة هابيل وقابيل التي تظهر أن الحسد قديم في حياة البشر. وكذلك نرى الحسد في قصة يوسف عليه السلام وإخوته. إخوة يوسف، أبناء النبي يعقوب عليه السلام الذين نشؤوا في رعايته لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من ارتكاب جريمة إلقاء يوسف في البئر بدافع الحسد. فهذه الحادثة تبرز مدى قوة الميل للحسد في الإنسان.

قال رسول الله ﷺ:

«إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».[١٢٦]

---

١٢٥ الحجر، ٣.

١٢٦ أبو داود، الأدب، ٤٤؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٢.

أليس سبب تجلي غضب الله تعالى على قارون الذي خُسِفَ به وبكنوزه الأرضَ لحسده؟ قال الله تعالى عن مصير قارون:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾.[١٢٧]

إن الحسد مذموم في كل أحواله إلا نوعًا واحدًا منه يُسمَّى الغبطة، وهي رغبة الإنسان أن تكون لديه النعمة التي لدى غيره من غير أن يتمنى زوالها عنه. في الحديث الشريف قال النبي ﷺ:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسُلِّطَ على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».[١٢٨]

فالغبطة لا تجوز إلا لمن ينفق ماله في سبيل الله ولمن ينفع الناس بعلمه. وهذه الغبطة تحول الحسد إلى فضيلة. يُغبَط الأنبياء والأولياء على أحوالهم السامية، وهذه الغبطة ترفع درجة القلب في الروحانيات. والرغبة الصافية في الفضائل وأمور الآخرة إنما هي من مقتضيات النفوس الطيبة.

إن العلاج الوحيد للشهوات المذمومة مثل الطمع والحسد هو التزين بروحانية الرضا والقناعة، لأن كنوز القناعة الروحية لا تنضب.

---

١٢٧ القصص، ٨١.

١٢٨ البخاري، العلم، ١٥؛ مسلم، المسافرين، ٢٦٨.

قال رسول الله ﷺ:

«**القناعة كنز لا يفنى**».[١٢٩]

فقسطاس الغنى القناعةُ والرضا بقسمة الله وعدم حسد الآخرين على ما لديهم. ولا يمكن تذوق حلاوة الغنى إلا بالقناعة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

"موتوا تحيوا، فتنالوا الجمال والغنى الحقيقي".

ولكن علينا أن نعلم أن الجمال يحتاج إلى عيون ترى وقلوب تحب. لا يمكن للجمال أن يُعرَض على العيون العمياء، ولا يمكن للألحان أن تُسمَع للأذان الصماء، ولا يمكن للنفوس الشرهة أن تشعر بالراحة والطمأنينة التي تأتي من القناعة. فأي لحن يمكن أن يستمتع به الأصم؟ وأي عطر يمكن أن يشمه من لا يملك حاسة الشم؟

لا يقلق الإنسان العاقل من قلة الرزق والنعم، لأنه يسعى وراء الرزاق لا الرزق. لا ينظر إلى ما يملكه غيره من نعيم، بل يكون دائمًا في حال رضا.

سألَ شقيق البلخي إبراهيمَ بن أدهم: "ماذا تعمل لمعاشك؟"

فأجاب إبراهيم بن أدهم: "إذا وجدنا، حمدنا الله، وإذا لم نجد، صبرنا".

١٢٩ الديلمي، الفردوس، ٣، ٢٣٦/ ٤٦٩٩.

فقال شقيق البلخي: "وكلاب خراسان تعمل هكذا!"

فسأل إبراهيم بن أدهم: "وماذا تعمل؟"

فأجاب شقيق البلخي: "إذا وجدنا، حمدنا الله وأنفقنا، وإذا لم نجد، صبرنا وشكرنا".

وسُئلت رابعة العدوية: "متى يرضى الله عن عبده؟"

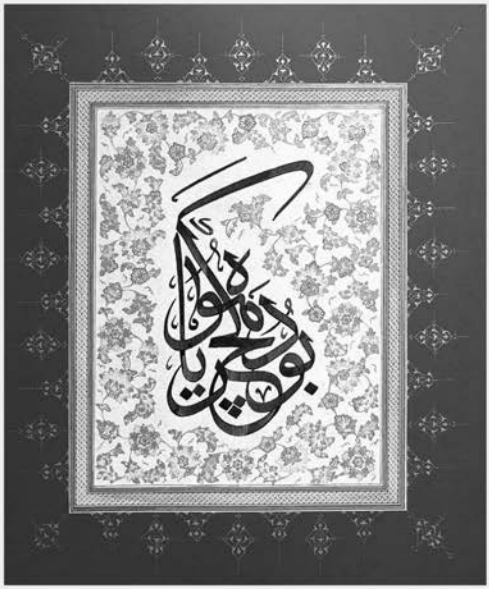
فأجابت: "إذا شكر اللهَ في الضراء كما يشكر غيره في السراء".

وقالت: "الاستغفار باللسان وحده هو عمل الكاذبين. العارف هو من يطلب من الله بقلبه، وعندما يجد يعطي لله".

فطوبى لمَن ارتقى أعلى المقامات المعنوية، إذ لهم سعادة الدنيا والآخرة! أما الذين تملأ قلوبهم الملذات المادية والرغبات النفسية، فما أسوء مصيرهم. فلا توجد روحانية لأولئك الذين يكرِّسون جهودهم وطاقتهم لإشباع شهوات الجسد. إن القانع أغنى الناس بالروح، وأسخاهم بالقلب، ومنه تنبعث السعادة والسلام.

قلب العبد الصالح يكون فوق المال والمُلك، فلا يصبح غنيًّا بها. وقلب الصالح المليء بحب الله يغني بوجوده قلوب غيره.

اللهم احفظنا من نيران الطمع والحسد التي تلتهم الأعمال الصالحة، وزيِّنا بالقناعة التي لا تنفد ولا تنضب...آمين!



كبت الغضب

كبت الغضب

يولد المرء في هذه الدنيا بفطرة سليمة، ويعيش مع نوازع الفسق والفجور الكامنة في نفسه، وميل التقوى في روحه، أي إنه مهيأ للخير والشر على السواء. لذلك من الضروري تزكية النفس وتطهيرها وتحسين الأخلاق من أجل القضاء على الصفات والنوازع الدنيئة، وتطوير القدرات الروحية. وهنا على الإنسان أولًا التخلص من الأخلاق السيئة، ولا شك أن "الغضب" يأتي في مقدمتها. فالغضب أسوء الأخلاق، فهو يعمي العقل والقلب. وباطن الإنسان المليء بالغضب مليء بالمصائب مثل الانتقام، والحقد، والإهانة، والنزاع، والقتل.

فصل الغضب في كتاب حياة الإنسان تاريخ من المصائب. وتكمن الوسيلة للنجاة من هذا الخطر الجسيم في استخدام قوة الأخوة والصبر في مواجهة هذا الفوران المكروه، والتزام الهدوء من غير فقدان التوازن.

عن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «**لا تغضب**».[١٣٠]

١٣٠ البخاري، الأدب، ٧٦؛ الترمذي، البر، ٧٣.

وقال رسول الله ﷺ:

«مَن كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره في أي الحور شاء».[١٣١]

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».[١٣٢]

كان الأنبياء يوصون دائمًا بالتغلب على الغضب، وكانوا يرون العفو وسيلة للسعادة. ومن الأمثلة الجميلة لذلك عفو النبي يوسف عليه السلام عن إخوته الذين ظلموه وحاولوا قتله حينما أتيحت له الفرصة للانتقام منهم. وقد اعترف إخوته بذلك قائلين:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾،[١٣٣]

فندموا واستغفروا وسلَّموا أمرهم له. وردَّ يوسف عليه السلام عليهم ردًّا جميلًا في قمة الفضائل إذ قال:

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.[١٣٤]

وأروع الأمثلة على الرحمة والعفو نجدها في حياة النبي محمد ﷺ. فقد عفا يوم فتح مكة عن هند التي مثَّلت بجسد عمه

١٣١ ابن ماجه، الزهد، ١٨.

١٣٢ البخاري، الأدب، ١٠٢؛ مسلم، البر، ١٠٦-١٠٨.

١٣٣ يوسف، ٩١.

١٣٤ يوسف، ٩٢.

حمزة. وعفا عن هبَّار بن الأسود الذي أسقط ابنته زينب من على الناقة وهي حامل فأصابها بجروح بليغة، والأمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى في حياة النبي ﷺ.

كان النبي ﷺ إذا غضب ما قام من مكانه. ولم يكن يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله. وإذا رأى أحدًا سلب حقًّا، غضب حتى استعاد الحق، ثم عاد إلى هدوئه. ما غضب النبي لنفسه قط، ولا جادل أحدًا.

وقد أثنى الله تعالى على هذا السلوك الكريم للنبي ﷺ، مبينًا أنه كان سبب نجاحه في مهمته النبوية، إذ قال:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.[١٣٥]

وفي آية أخرى، يصف الله تعالى أهل الإنفاق والذين يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس بأنهم من "المحسنين":

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.[١٣٦]

١٣٥ آل عمران، ١٥٩.

١٣٦ آل عمران، ١٣٤.

وحكي أن غلامًا لجعفر الصادق ﷺ سكب على يده الماء في الطشت، فطار الماء على ثوبه، فنظر إليه جعفر نظرة منكرة،

فقال العبد: يا مولاي: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ قال: كظمت غيظي.

قال الغلام: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال عفوت عنك.

قال الغلام: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال اذهب، أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، ولك من مالي ألف دينار.[١٣٧]

هذه الحادثة تعد تجسيدًا جميلًا للأخلاق القرآنية وأخلاق النبي محمد ﷺ.

ولكن ينبغي أن نوضح هنا أن الغضب إذا كان من النفس والشيطان فهو مذموم. أما إذا كان من الله، أي في سبيل الله ومن أجله وحده، فإنه يصبح فضيلة. أي إنه عندما تكون هجمات نفسية وشيطانية على الدين والإيمان والأخلاق، فإن البقاء غير مبالٍ وغير مكترث لا يعد كظمًا للغيظ، بل إن مثل هذا التصرف يعد غفلة كاملة. لأن الجانب الآخر من مقياس الإيمان الذي هو "الحب في الله" يوجد "البغض في الله". وهكذا كما أن التغلب على الغضب مهم لنيل رضا الله، فكذلك الغضب في سبيل الله.

والتفريق بين هذين النوعين من الغضب تفريقًا دقيقًا والتصرف وفقًا لذلك أمر شديد الصعوبة. هذا التفريق يقتضي فراسة عظيمة

١٣٧ ابن الجوزي، بحر الدموع، ١٤٢.

ونضجًا ورِقَّة في القلب. لذلك يمكننا فهم تعبير "الكاظمين الغيظ" في القرآن الكريم على أنه "التحكم بالغضب".

يقول الله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.[١٣٨]

وفي آية أخرى يبين الله تعالى صفات عباده الصالحين بقوله:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.[١٣٩]

من الأمثلة البارزة على السلوك النبيل أن التابعي الكبير الإمام الشعبي حين احتقره فاسق، ردَّ عليه بقوله: "إنْ كان قولك صوابًا، فغفر الله لي. وإنْ كان كذبًا، فغفر الله لك!"

وقال ذو النون المصري: "ينبغي للإنسان أن يكون وليًّا لله عدوًّا لنفسه، لا وليًّا لنفسه عدوًّا لله."

اللهم احفظنا من أن نكون عبيدًا لأنفسنا، وزيِّن قلوبنا بالأخلاق الحميدة التي ترضى بها عنا...آمين!

---

١٣٨ الأعراف، ١٩٩.

١٣٩ الفرقان، ٦٣.



الحياة والموت

يُحكَى أن رجلًا كان دكانه عند بوابة المدينة. وكان إذا خرجت جنازة من تلك البوابة، وضع بذرة فاكهة في الإناء الذي بجانبه، وفي نهاية الشهر أحصى البذور وقال: "هذا الشهر سقط في الإناء هذا العدد من الناس!"

وفي يوم من الأيام مات الرجل. وبعد مرور مدة طويلة جاء صديق له لزيارته وهو لا يعلم بوفاته، فلم يجده فسأل الجيران: "أين صاحب الدكان؟"

فقالوا له: "لقد سقط هو أيضًا في الإناء!"

هذه هي حكاية المسافرين الذين يأتون إلى هذا العالم الفاني... يُقال لكل إنسان: كان يا ما كان...

وما أجمل قول يونس أمره:

خرجنا من رحم الأم إلى السوق،

اشترينا كفنًا وعُدنا إلى القبر!

والحق أنه لا يبقى لنا من تجارة الدنيا، سواء كنا أغنياء أو فقراء، إلا الكفن... لذلك ما يهمنا هو تجارتنا الأخروية.

خلق الله تعالى الإنسان قادرًا على أن يفهم أكثر بالتناقضات، ولهذا نجد التناقض هو الأصل في هذا العالم. فكلما كانت التناقضات أوضح، كان الفهم أعمق. الحب يُفهم بوجود الكراهية، والجمال بوجود القبح، والخير بوجود الشر، والعقل بوجود الحماقة، والسرور بوجود الألم، والدنيا بوجود الآخرة، والموت النبيل بوجود الموت الدنيء.

يتقلب الإنسان في مسار حياته بين فرحة العيش ورعب الموت، وهما تناقضان مدهشان. فلا يمكن فهم سر الخلق ولا الجوهر الحقيقي للإنسان بلا فهم المعاني الحقيقية للحياة والموت.

ألا يتساءل ذو العقل السليم عن هذا الكون بكل ما فيه من نظام وانسجام يعجز العقل البشري عن استيعابه، من فلق البذرة إلى بهجة الربيع، ومن الولادات إلى الوفيات، ومن العالم الصغير إلى العالم الكبير، ومن الذرات إلى الكواكب؟ مَن هو الخالق والمبدع وراء هذا النظام والانسجام؟ أليس هذا الانسجام الكامل في الكون كنز من الحكم والعبر؟ والجواب عن هذه الأسئلة في القرآن الكريم، فالله تعالى يقول:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.[١٤٠]

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.[١٤١]

١٤٠ الدخان، ٣٨.

١٤١ المؤمنون، ١١٥.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾.[١٤٢]

إن الحكمة من خلق الإنسان هي أن يعرف اللهَ تعالى على قدر استطاعته، ورفد هذه المعرفة بالإحسان والعمل الصالح وتقديمها لله تعالى، وهذا ما نسميه "العبادة" اختصارًا. والهدف من هذه العبادة هو تطهير القلب وتزكية النفس للوصول إلى الله، أي الوصال معه. وهذه الدرجة تصل إلى الكمال بمرتبة "الولاية" التي تعد أعلى الدرجات بعد مرتبة "النبوة".

والولاية هي تجاوز المقاييس الدنيوية والوصول إلى الله بخفض الأنا إلى أدنى مستوى. وهذه الدرجة العالية تسمى "الفناء في الله". وهي تشبه حال النهر الذي يصل إلى البحر ويفقد هويته، أو كالأطعمة التي تدخل الجسم فتفقد ماهيتها الظاهرة.

والوصول إلى هذا المقام قبل الموت الحقيقي هو نوع من الوصال مع الله، وأجمل تعبير عن هذه الحال قول: "موتوا قبل أن تموتوا".

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

"إذا أردت الحياة فمُتْ!"، ويعني بذلك الموت المعنوي. فالولادة في الحياة الباقية هي بعث في عالم آخر.

فطوبى لمن استطاع أن يموت بهذه الطريقة، بالقضاء على رغباته الدنيوية بفرحة التوحيد ومعرفة الله!

١٤٢ القيامة، ٣٦.

لذلك يرى مولانا جلال الدين الرومي الانتقال من هذا العالم الفاني إلى الحياة الباقية مثل "ليلة العرس". يقول في أبياته:

"لا تظنن أنني أحمل هموم هذه الدنيا في اليوم الذي أموت فيه ويحملونني في تابوتي.

لا تبكِ عليَّ، ولا تقل: آه، آه! ولا تقل: وداعًا، وداعًا عندما يضعونني في التراب!

فالقبر حجاب يخفي وراءه راحة الجنة!

إنني كنت ميتًا، فبُعِثت... كنت دمعة، فأصبحت ابتسامة... غصت في بحر العشق، وأخيرًا وصلت إلى الحياة الباقية..."

فهذه هي كلمات المحبة التي يقولها عاشق الحق في شوق اللقاء وتعبير عن التخلي عن هذا العالم الفاني الذي هو مكان فراق. هذه حال جميع العارفين والصالحين في هذا العالم.

إن الموت الذي سيواجهه كل مسافر في الحياة بلا استثناء لغزٌ يجب أن يحله كل ذي إدراك.

يقول الله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.[١٤٣]

١٤٣ الأنبياء، ٣٥.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.[١٤٤]

ليس للموت لغة معروفة، لكنه دفنَ رسائل مروعة في صمته الشديد. الموت دروس صامتة خالية من الكلمات تفصح للعقول الواعية عن عظات وحكم وحقائق بليغة أكثر من أفصح الألسنة.

حِمل الموت الرهيب لا تحمله أكتاف الكلمات الضعيفة! وتنتهي جميع القدرات وتزول أمام الموت. المحبات المؤقتة، والرغبات المجنونة، والملذات الفانية، والفلسفات الباطلة التي تتسبب في بؤس الناس في المتاهات، كلها تعجز أمام الموت مثلما تعجز أوراق الخريف الصفراء أمام الريح.

إن المقابر مليئة بعناوين الآباء، والأمهات، والأطفال، والأقارب، والأصدقاء الذين قضوا حياتهم الفانية. والحياة في الدنيا، سواء عاشها الإنسان في قصر أو على التبن، تؤدي جميع طرقها ومنحنياتها إلى المقابر لا محالة.

يقول الله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾.[١٤٥]

ويقول رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**».[١٤٦]

١٤٤ الملك، ٢.

١٤٥ القيامة، ١٠.

١٤٦ الترمذي، الزهد، ٤؛ النسائي، الجنائز، ٣.

علينا أن نعلم أنه لا وقت ولا مكان في الدنيا للهرب من الموت، ولا عودة من القبر، ولا ملاذ من أهوال يوم القيامة...

وصف النبي عليه الصلاة والسلام القبرَ الذي سيتشكَّل وفقًا لأعمالنا فقال:

«إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».[١٤٧]

إن بيوت الذين تغلبهم نفوسهم الغافلة كالمقابر للأموات الأحياء. فهم لا يدركون أن الموت لا يأتي متأخرًا ولا مبكرًا، بل يأتي في وقته المعلوم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم لمن يحاول الهرب من الموت:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.[١٤٨]

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[١٤٩]

إذا لم يستطع الإنسان فهم الحكمة من خلقه وخلق الكون، فإن أمور الدنيا السطحية ستغلب عليه. ومن لا يدرك الحكمة من مجيئه إلى الدنيا ورحيله عنها يبقى جاهلًا حقيقة وجوده. والإنسان ليس نتيجة صدفة عابرة في مغامرة ليست فيها حكمة...

---

١٤٧ الترمذي، القيامة، ٢٦.

١٤٨ النساء، ٧٨.

١٤٩ الجمعة، ٨.

فالمؤمن الذي يدرك هذه الحقيقة ويستوعبها يرى الموت أول مرحلة من مراحل اللقاء بربه، وهذا أعظم ما قد يفوز به.

كلمة "التقوى" في القرآن الكريم من أكثر الكلمات ذكرًا بعد اسم "الله". التقوى تعني حفظ القلب، وحمايته من الشرور، والسيطرة على النفس والهوى، وسمو الروح حتى تصل إلى الكمال.

يقول الله تعالى في الآية:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.[١٥٠]

إن الأعمال تبلغ مرتبة "الأعمال الصالحة" بالتقوى والزهد، والله تعالى يقول:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا﴾.[١٥١]

والزهد والتقوى والعمل الصالح يعني الرقة في القلب، والنور في الضمير، والطمأنينة في الروح، والكمال في الأخلاق.

المؤمن التقي الزاهد في ظل فهم عميق للحياة ووعي أخلاقي روحاني يوجِّه عقله إلى الحق، وقلبه إلى الخير، وأعضاءه إلى

١٥٠ الحجرات، ١٣.

١٥١ النساء، ١٢٢.

الأعمال الحسنة والمفيدة، وهكذا تتشكل "الأعمال الصالحة". ويصل المؤمن بهذه الأعمال الصالحة إلى رضا الله تعالى، ويصبح فانيًا في الله، فينال سعادة البقاء في محبة الله.

لكن هذه الحال تتحقق وفقًا لمستوى القلب، وذلك يكون بذكر الله ونتيجة محبته. فيجب مشاهدة الكون من زاوية الوعي، والشعور، والتأثر، والإيمان. والقلوب التي تضيء بنور الله تدخل في أحوال مختلفة، والعيون التي ترى والآذان التي تسمع بالله تكتسب بُعدًا آخر. والإدراك الذي يتسع بالله يعلم الحكم والعبر في الوجود.

الموت السعيد مكافأةٌ لحياة مرَّت تحت أنوار الإيمان والقرآن وفيوضات القلب. وجعل الدنيا ميدانًا للخزي بالأعمال القبيحة هو وهم مؤلم!

ولكن الوصول إلى المغفرة بدموع الندم هو هدية عظيمة من الله الغفار للإنسان! الوصول إلى حقيقة الموت الذي لا يمكن فهمه تمامًا بالعقل البشري لا يكون إلا بالاقتداء بحياة الأنبياء وأولياء الله والاعتبار بأحوالهم. وإلا كان الموت أول تجلٍّ مؤلم وكارثة عظيمة! لأن للموت، مثل كل المتضادات، تجليان مختلفان تمامًا وفقًا للإدراك البشري.

مسألة الموت شغلت البشر كثيرًا على الرغم من هدي الأنبياء. فحاولوا تهدئة هذه الحقيقة الرهيبة المتجذرة في العقول بوسائل نفسية مختلفة.

الموت، الذي سيصيب الجميع بلا استثناء هو أعظم مصيبة أو رحمة تنتظر كل إنسان. لا يمكن فهم هذه الحقيقة المستقبلية إلا بالاستماع إلى صوت الوحي والاقتداء بالأنبياء وأولياء الله بعد تجاوز عوائق النفس. يُعبِّر القرآن الكريم عن قرب كل لحظة تمر بنا من صباح الحقيقة:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.[١٥٢]

فيا رب زيِّن حياتنا ومماتنا بما أكرمت به عبادك الصالحين من رحمات وبركات ونعم وفضائل، فأنت أرحم الراحمين!...

آمين.

١٥٢ يس، ٦٨.



تجميل الموت

تجميل الموت

كان خبَّاز غريب يقبل من الناس الدراهم المزوَّرة حين تعطى له ويعطهم الخبز. وكان الجميع يتعجبون من سلوكه ولا يفهمون سببه. ولما حان أجله، رفع الخباز يديه إلى السماء ودعا:

"إلهي، أنت تعلم أن الناس أعطوني دراهم مزورة سنوات، فلم أردَّها عليهم وأعطيتهم ما طلبوه. إلهي، هأنذا آتيك بطاعة مزوَّرة فلا تردَّها عليَّ!"

يعبر حال هذا الخباز عن نيته الصافية وجهده الصادق في إعداد أيامه الفانية من أجل الموت وما بعده. فكما أن النتيجة الجميلة تقتضي مسارًا جميلًا، فإن حياة آخرة جميلة تتطلب أيضًا حياة دنيوية مزينة بالأعمال الصالحة الخفية والظاهرة الخالصة لله تعالى. وهذا ما يمكن أن نسميه "تجميل الموت". فالمقصود بتجميل الموت هو الوصول إلى نضج القلب الذي يمكِّن الإنسان من إزالة الأحوال السلبية والقبيحة للنفس بإرادة قوية في الحياة الفانية قبل أن يتحقق الموت غير الإرادي، وذلك بسر: "موتوا قبل أن تموتوا!

عندما يصل العبد إلى مستوى من الكمال، ينكشف الحجاب بينه وبين الخالق، وتفقد الملذات الفانية حياتها. يعيش العبد في أجواء من الطمأنينة في العبادة، والرقة في المعاملة، والفضيلة في الأخلاق. وتبدأ روحه في تذوق السعادة الأبدية بالقرب من ربه دائمًا.

لهذا قال مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله معبرًا عن مراحل قربه من الله: "كنت خامًا، ثم نضجت، وأخيرًا احترقت".

وعلى الرغم من أن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، إلا أن طريق الفقر والفناء هو أفضلها.

الفقر والفناء يعنيان التخلص من "الأنا" بفضل محبة الله، وإخراج كل ما سوى الله من العين والقلب. وهذا يعني تجميل الموت بتجلي سر "موتوا قبل أن تموتوا".

لكن بلوغ هذا السر يتطلب الالتزام بإخلاص بالمبادئ الأساسية التالية التي تنطبق على الجميع:

التوبة:

تظهر الذنوب عن ميول مثل الجهل والشهوة والكبر والغرور والطمع والبخل والحسد والإسراف والغضب. فهذه الأحوال هي حواجز بين العبد والخالق. وإذا استطاع العبد أن يرفع حجاب الغفلة، شعر بثقل ذنبه في ضميره، واستيقظ الإحساس بالفضيلة المخفي في قلبه، فيبدأ القلب في الالتجاء إلى الله بدموع الندامة. وهذا الندم هو التوبة، هو العودة إلى الله تعالى.

فالتوبة تعبر عن الأوبة إلى الله بإرادة قبل أن يأتي الموت الذي هو أوبة إلى الله بلا إرادة. التوبة هي إزالة العوائق بين الله والعبد بالندم. التوبة هي أول واجب لا بد من أدائه عند التوجه إلى الله، لأن الذنوب تقلل من رقة القلب وتثقله. ومثلما تتسخ المرآة اللامعة بالغبار فلا تكون الصورة واضحة عليها، كذلك يجب تنظيف القلب بالتوبة والاستغفار من الأدران المعنوية قبل التوجه إلى الله.

ولهذا تبدأ الدروس المعنوية في طرق التصوف كلها بالاستغفار. فالاستغفار من أجل الدعوات الصادقة يُعد ضرورة. يقول مولانا جلال الدين الرومي عن التوبة: "تب بقلب مليء بنار الندم، وبعينين مبتلَّتَين، فالأزهار تتفتح في الأماكن المشمسة والرطبة..."

الزهد:

الزهد هو تخلي القلب عن زينة الدنيا وملذاتها ومالها. فالموت سيزيلها كلها دفعة واحدة. حقيقة الزهد هي تخلي القلب عن التعلق بالمال والنفس طوعًا قبل الموت الذي سيقع كرهًا.

قال بعض الحكماء: "لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من طين يبقى، لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى. ولا سيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يفنى والآخرة من ذهب يبقى".[١٥٣]

١٥٣ ابن عجيبة، البحر المديد، ٢، ١١٢.

إن العقل المحصور بين حقيقتين عظيمتين ومخيفتين مثل "المجيء إلى الدنيا وتركها" إذا لم يدرك حقيقة الدنيا والعقبى وجعل أحواله بناء على هذا العجز في الإدراك، فلا يمكنه الشروع في رحلة معنوية نحو دار الحقيقة.

وصف أحد العارفين هذا العالم فقال إنه "مشاهدة البدائع للعقلاء" و"أكل وشهوة للحمقى".

فإذا لم يكن للقلب رأي صحيح في هذه الحياة الدنيوية بشهواتها، فالنتيجة خسارة تقود إلى الهلاك.

التوكل:

التوكل هو أن يلجأ العبد إلى ربه ويستسلم له قبل الموت. والثقة بالله والتسليم له لا يعني الابتعاد عن الأسباب أو الامتناع عن السعي إليها، بل يعني إدراك أن التدابير لن تكون نافعة ما لم تتوافق مع تقدير الله. فالموت في المستقبل هو الوصول إلى هذا الحال. يقول الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.[١٥٤]

التوكل هو أن يكون القلب متعلقًا بالله وحده، وأن يعتمد العبد على الله وحده ويستعين به.

قال الله لموسى عليه السلام: **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾**.[١٥٥]

١٥٤ الطلاق، ٣.

١٥٥ طه، ١٧.

ثم قال له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾.[١٥٦]

لأن العصا كانت تعطيه شعورًا بالأمان، مما يحجب توكله الكامل على الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[١٥٧]

التوكل لا يعني ترك التدبير والسعي، بل هو الاتكال على الله بعد أخذ الأسباب والسعي إليها. لم تحرق النار سيدنا إبراهيم عليه السلام لتوكله وتسليمه الكامل لله، إذ أمر الله النار بأن تكون بردًا وسلامًا عليه.[١٥٨]

فالتوكل هي أن يستسلم العبد لربه طوعًا في حياته قبل أن يأتي الموت قسرًا. يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

"ابحث في نفسك إن كان لديك شيء من صفات إبراهيم عليه السلام، فالنار تعرف الذين يسلمون أنفسهم لله مثل إبراهيم ولا تحرقهم".

القناعة:

هي أن لا ترى حاجة في ما يزيد على ما لديك. يجد المرء نفسه مضطرًا للقناعة مع الموت. والعلاج الوحيد لجشع النفوس وحسدها، وهما من أخطر الصفات الأخلاقية، يكمن في الاتصاف

١٥٦ طه، ١٩.

١٥٧ المائدة، ٢٣.

١٥٨ انظر: الأنبياء، ٦٩.

بالقناعة، لأن الكنوز الإلهية التي تمنحها القناعة للقلب لا تنتهي ولا تفنى. وقد قيل: "القناعة كنز لا يفنى".[١٥٩]

فالمقياس الحقيقي للغنى هو القناعة، والرضا بما قسمه الله، وتجنب حسد مَن هو أكثر مالًا. لذة غنى القلب لا تُدرك إلا بالقناعة.

إن حقيقة أن الرزق قد قُسم في الأزل حقيقة نابعة من إيمان. وإذا نظر الإنسان إلى أن هذا الرزق لا يزيد ولا ينقص، اتضح له قبح الطمع والجشع. ومع ذلك يعجز أناس عن التخلص بسهولة من طمعهم في اكتساب المال والممتلكات، على الرغم من أنهم يرون غالبًا أن الذين يكسبون ليسوا هم من يستهلكون.

فثمة تجلٍّ قوي للأنا يصعب التخلص منه في لاوعي هؤلاء الأشخاص. المال يشكل وهمًا بالقوة عندهم، ويشعرون بسعادة ولذة شديدة من التقدير والاهتمام الذي يجمعونه من القلوب الحاسدة.

القناعة هي العلاج الوحيد الذي يقضي على هذه الأمراض. والتحرر من التعلقات التي تضر بالقلب جراء المصائب المتعلقة بمال الدنيا لا يمكن إلا بالقناعة. فالاستغناء في القناعة يجب ألا يشمل المال فقط، بل أيضًا التقدير والاهتمام الذي يثيره هذا المال في الآخرين.

علينا أن ندرك أن المُلك لله، وأن الإنسان ليس إلا مؤتمنًا على المال.

١٥٩ الديلمي، الفردوس، ٣، ٢٣٦/ ٤٦٩٩.

الاعتزال:

الاعتزال هو حالة ضرورية للوصول إلى القمة في السير والسلوك. ولكن، حتى لا تتعطل مقتضيات الحياة الاجتماعية لا يكون الاعتزال بانسحاب المرء إلى زاوية والتخلي عن كل شيء، إنما هو العيش في حال الوحدة في الكثرة، أي أن يكون المرء مع ربه وهو بين الناس. هذا هو وداع الحياة ماديًّا بالانفصال عن جميع العلاقات مع العالم، والعيش مع الله بالقلب بين التجليات الربانية، أي أن يكون مع الله بإرادته قبل أن يأتي الموت فيكون اعتزالًا قسريًّا.

الذكر:

تجلي الفيض قائم على المحبة، والمحبة تتحقق بقدر ما يستقر الذكر في القلب والعقل. واستقرار المحبوب في القلب والعقل يكون بذكره. وكلما كان الذكر أكثر، كانت المحبة أكبر.

لفظ الجلالة أشد الأسماء تأثيرًا بين أسماء الله من حيث كونه مصدر الفيوضات. ولثقل تجلياته يُعطى السالك في التصوف الذكر بلفظ الجلالة بعد مرحلة تحضيرية تبدأ بالاستغفار.

ذكر الله يعين المرء في الترقِّي في محبة الله، أي إن الذكر كلما كان أكثر وأعمق إدراكًا، كانت الفيوضات أعظم.

عندما يستقر ذكر الله في جوهر القلب، يسير المؤمن في طريق كمال التجليات العبودية. يقول الله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.[١٦٠]

إذا لم يستقر اللفظ الجليل في جوهر القلب، تعلق القلب بالمال والمُلك والأشياء ورغبات النفس. قال الله تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾.[١٦١]

القلوب المليئة بالروحانية فيها الأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة والأحوال الحسنة، فيكتسب الإنسان صفة أكرم المخلوقات. أما القلوب المليئة بالنفسانيات فيتجذر فيها الكفر والشرك والأحوال السيئة والشهوة والوسوسة فتسيطر على القلب، ويبيت القلب أعمى على عكس الغاية من خلقه، وقد يهوي فيكون أسوأ من باقي المخلوقات.

التوجه:

التوجه هو الابتعاد عن كل ما يأتي من غير الله ويجذب النفس. والموت هو بلوغ هذه الحال. فلا يمكن للعبد الصالح أن يكون له طلب حقيقي، أو صديق، أو هدف غير ربه. فلا يبقى غافلًا عن مولاه أبدًا. والغافل يبتعد عن كل شيء توجه إليه من غير الله عند الموت. السعادة الحقيقية هي أن يتوجه العبد تمامًا إلى ربه وكل ما يرضيه ويستسلم له في الحياة الدنيا.

١٦٠ الرعد، ٢٨.

١٦١ الفرقان، ٤٣.

الصبر:

الصبر هو أن يتحلى العبد بالسكينة ويستسلم لله في مواجهة الأحداث التي لا تروق للنفس وتسبب الألم دون أن يختل توازنه الظاهر والباطن. والقبر سيكون مكانًا قسريًّا للصبر على جميع الرغبات الدنيوية.

علينا أن نستخدم الصفات الروحانية مثل العفو، والحلم، والتواضع، والعفة، والقناعة، والشفقة، والرحمة، واللطف، والتسامح في مواجهة الأحداث التي تتطلب الصبر. ولا بد لنا من الصبر على كل ما يبعدنا عن رضا الله القائل في كتابه العزيز:

﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾.[١٦٢]

لأن الصبر درع قوي في الصعوبات والمشقات. والموت هو نهاية المعاناة الناتجة من مقاومة رغبات النفس.

المراقبة:

المراقبة هي شعور العبد بأنه تحت المراقبة الإلهية في كل لحظة، فيبتعد عن المعصية.

لا يمكن لأي مخلوق أن يخرج عما قضاه الله. لا يمكنه الهروب من الموت والبعث. العدم والوجود، والموت والحياة، والفناء والبقاء، كلها صفات متناقضة تتلاقى كل لحظة. ففي كل لحظة تموت آلاف الخلايا في الجسم وتُولَد آلاف الخلايا

١٦٢ يونس، ١٠٩.

الجديدة. وفي كل لحظة يولد آلاف الأشخاص ويموت الآلاف. وفي كل لحظة يضيع الكثير من الناس الغافلين في ملذات الدنيا ويكون كثير من الصالحين في حال تضرع والتجاء إلى الله سبحانه وتعالى.

القبر هو المحطة الأخيرة في الدنيا ينتظر كل حي. وليس في الكون إلا تصريف الله وملكوته ونظامه. فلا بد للعبد أن يكون في إطار هذه المراقبة الإلهية قبل الموت ليصل إلى المستوى المطلوب في عبوديته.

الرضا:

الرضا هو أن يعيش العبد بعيدًا عن رضا نفسه في إطار رضا خالقه. وما الموت إلا وصول إلى هذا المقام. الرضا هو بلوغ أعلى درجات الإدراك بتصفية القلب وتطهير النفس. وهكذا يتخلص العبد من عبودية الأشياء الخداعة الفانية ويخضع لله وحده.

التفكر في الموت:

الدنيا دار لابتلاء إيمان العبد، والموت قانون انتقال لا بد منه.

قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**».[١٦٣]

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: "موتوا لتحيوا!"

١٦٣ الترمذي، الزهد، ٤؛ النسائي، الجنائز، ٣.

وإحياء القلب لا يكون إلا بالتخلي عن الأهواء النفسية.

التفكر في الموت هو تذكر الموت قبل أن يأتي قسرًا. فهو الابتعاد عن أهواء النفس والاستعداد طوعًا للقاء الله تعالى. فهذا تفكر قائم على الإيمان.

لا شك أن آمال هذه الدنيا وأحلامها الفانية مثل أوراق تسقط على تراب القبر.

إن كانت رطوبة تراب المقابر وصلابة حجارتها هي الجواب الوحيد للسؤال الذي يتبادر إلى ذهن الإنسان حين يُسأَل: "ما الحياة؟" فما الشيء الأمَرُّ والأشقى من هذه الحياة القصيرة التي تضيع في غفلة؟

وكم من مشهد في الدنيا يعظك ويذكِّرك بالموت، منها الواعظ الصامت كمشهد الجنازات، ومنظر القبور، وزرقة شفاه الموتى، ولمعات دموع الثكالى على وجناتٍ فقدت بريق الحياة، وأطفأ بهجتها ظلام انقطاع الروح عن المحبوب.

لا شك أن العبد إذا تخلى عن أهواء نفسه بإرادته، فإن الله تعالى يحيي قلبه بلطفه وكرمه، فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[١٦٤]

١٦٤ الأنعام، ١٢٢.

إن قلوب الصالحين من عباد الله تكون حية لأنهم تخلوا عن الشهوات النفسية في الدنيا. قال رسول الله ﷺ:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».[١٦٥]

كل ما ذكر هو من المبادئ التي تُطبَّق في الحياة المعنوية لتحقيق سر: "الموت قبل الموت". فالمؤمنون الذين يسعون لتطبيق هذه المبادئ بجدية واجتهاد يصلون إلى الرقي المعنوي بما يتناسب مع جديتهم وجهدهم. ولا شك أن الجهد الصادق، مع عون الله، يحقق السعادة المرجوة.

الدنيا سراب، والآخرة حياة أبدية. الموت هو القيامة الصغرى لكل إنسان، فلنستيقظ قبل قيامتنا كي لا نكون من النادمين. فكل إنسان لا محالة سيواجه ملك الموت في زمان ومكان مجهولَين. ولا مفر من الموت، لذا ينبغي للإنسان أن يعي سر قول الله تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾[١٦٦] ويدرك أن الرحمة الإلهية هي الملاذ الوحيد.

إذا عاش الإنسان تحت سيطرة النفس وكأنه يؤمن بالدنيا وحدها، فسيبدو القبر له كممر مظلم. ورعب الموت سيكون له معاناة لا تُوصَف. ولكن إذا التزم بالمبادئ المذكورة، وتجاوز عائق

١٦٥ الترمذي، تفسير، ١٥/ ٣١٢٧.

١٦٦ الذاريات، ٥٠.

نفسه، وسار في طريق الصفات الملائكية الكامنة في روحه، فإن الموت سيكون شرطًا لا بد منه للوصول إلى مرضاة الله العظيم. فالموت الذي يسبب القشعريرة لدى معظم الناس سيتحول إلى شوق للقاء "الرفيق الأعلى".

رأى مالك بن دينار صاحبَه رفيعًا في حلمه ذات ليلة. رآه يجري حافي القدمين حاسر الرأس، فسأله مالك: "إلى أين؟" فقال رفيع: "الحمد لله، تحررت من السجن".

وفي الصباح ذهب مالك إلى بيت صاحبه، فوجده ميتًا.

فالموت هكذا يكون مثل "ليلة الزفاف" كما وصفه مولانا جلال الدين الرومي، هي ليلة اللقاء مع المحبوب. إنه طريق يجعل الموت جميلًا، وهو أشد المصائب رعبًا. فلا بد من استيعاب ما ذكرناه هنا حتى نرتقي معنويًّا، فالله تعالى يقول:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.[١٦٧]

نسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعًا رؤية الكون بفراسة ومشاهدته بوعي ويقظة إيمانية، وأن يجعلنا في رياض مغفرته بدموع التوبة، وأن نصل إلى سر "الموت قبل الموت" وندرك الحقيقة الأبدية.

آمين!

طوبى لمن آبَ إلى ربه قبل أجله.

١٦٧ الحجر، ٩٩.



سر الليل

سر الليل

لقد وضع الله تعالى في الليل أسرارًا لا تُحصى وجعل فيها نعمًا عظيمة. يقول الله تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.[١٦٨]

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.[١٦٩]

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ. وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.[١٧٠]

فهذا القسم الرباني المتتابع بالليل يبين لنا عظمه الليل ويرشدنا لرؤية حقائق كثيرة.

ويقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[١٧١] مشيرًا إلى أن الليل يكون كالثوب، وهذا تجلٍّ إلهي يستحق الذكر.

والحق أن الليل يُعد لباسًا صحيًّا اجتماعيًّا أخلاقيًّا جماليًّا. إنه ثوب من القدرة والراحة والنعمة مُفَصّلٌ على مقاس العالم.

---

١٦٨ الانشقاق، ١٧.

١٦٩ الضحى، ٢.

١٧٠ التكوير، ١٥-١٨.

١٧١ النبأ، ١٠.

وهو أيضًا ثوب سعادة من منظور قانون الزواج. وهو ستارٌ يحمي الخصوصية، وملجأ لمن يرغبون في الاختباء ماديًّا ومعنويًّا.

فالليالي هي لحظة وصال لمحبي الله، ولكنها أيضًا غفلة كبرى للمجرمين والذين يتبعون أهواءهم.

لا يقدر النهار على توفير راحة الليل الصحية. فلا يمكن للإنسان التخلص من ثقل الإرهاق المادي والمعنوي من النهار دون الاحتماء بسكون الليل. وإلا سيقود الكثير من الناس الطموحين أنفسهم إلى الهلاك. ومن نتيجة هذا التقدير الإلهي قُسِمَ اليوم إلى ليل ونهار.

الأحداث والوقائع، سواء كانت إيجابية أو سلبية، تهيمن في غالب الأحيان على الليل مقارنة بالنهار. يأتي أغلب عذاب الله ليلًا كما ذُكر في عدة آيات كريمة، لأننا لا نستطيع الشعور بالأمان حتى في النهار. يقول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.[١٧٢]

والليالي أوقات لجوء مهمة للنجاة من عذاب الله. يقول شاه نقشبند رحمه الله: "لا توجد ليلة إلا ويأتي من السماء نداء حتى بزوغ الفجر: هل من داع يستجاب له؟ هل من تائب تُقبل توبته؟ هل من طالب يُعطى طلبه؟"

١٧٢ الأعراف، ٩٧.

والوحي نزل على النبي ﷺ غالبًا في الليل. وبدأت البشارات الأولى للنبوة بأحلام صادقة في الليل. والهبات الربانية من الرؤى التي تُعرف بـ"الرؤى الرحمانية" والتي تعكس أضواءً من اللوح المحفوظ على المستقبل تظهر في صدور الليالي المليئة بالحكمة.

الإسراء والمعراج وهو الحدث الذي رأى فيه رسول الله ﷺ الحقائق الأزلية والأبدية كان في الليل. والعروج به إلى السماوات كان في الليل.

ونزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا كان في الليل.

تُعَد الليالي لدى المؤمنين غنيمة لا مثيل لها بفضل سكونها وفيوضاتها. والذين يدركون قيمة هذه الغنيمة يجدون فرصة للتوجه بالدعاء والعبادة لاستقبال رحمة الله، لا سيما بعد منتصف الليل، إذ تتجه جميع المخلوقات للراحة وتعم السكينة.

وقد أثنى الله تعالى على العباد السعداء الذين سيفرحون بنعم الله في الجنة ويستريحون قرب أنهارها لأنهم نأوا بأنفسهم عن المحرمات، فقال:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.[١٧٣]

الليل هو وقت ترك الوسادة محبة لله تعالى وحده وطلبًا لرضاه. فقيام الليل والصلاة والذكر فيه- وهو ليس فرضًا- له أهمية

١٧٣ الذاريات، ١٧-١٨.

عظيمة في نيل رضا الله تعالى. فيتجلى الاهتمام والالتزام بالصلاة والذكر ليلًا بمقدار شدة حب الله في القلوب.

ولنا أن نقول إن الصلاة والذكر ليلًا كأنهما لقاء وحديث مع الرب العظيم. واستيقاظ العبد والجميع نائمون يعني أنه يدخل عرش رحمة الله وينضم إلى مجلس المحبة والرحمة الربانية.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.[١٧٤]

قال القاضي بيضاوي في تفسير هذه الآية:

"روي أنه عليه السلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصًا على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن".[١٧٥]

ذكر الله تعالى "السبات" في الآية التاسعة من سورة النبأ، والسبات كلمة ترتبط بجوانب النوم المختلفة. فالنوم يوفر للجسم راحة ويعطل وظائفه. وكأنه يفصلنا عن حياة اليقظة ويجعلنا في حال من الموت.

والحق أن أعضاء الجسم كلها تتوق إلى الراحة، العيون المرهقة بمناظر العيش في النهار، والأذان الممتلئة بضجيج الحياة، والعقول

١٧٤ الشعراء، ٢١٨-٢١٩.

١٧٥ البيضاوي، أنوار التنزيل، ٤، ١٥١.

المضغوطة بالأفكار، والشفاه المتعبة من التعبير عن الهموم، والقلوب القلقة، والأيدي والأرجل المثقلة بالعمل الفاني.

يعرض الليل لوحة فنية من العظمة بظلمته، وصمته، ونجومه المتلألئة. وبينما تبتسم سماء الليل المزخرفة المليئة بالنجوم، ينزل علينا النوم، فننجر إلى استرخاء لا مفر منه، وفي النهاية نستلقي على أسرتنا براحة تامة مثل الأموات.

تخضع الكائنات لصمت الليل متشحة بمشهد من العدم، فيبدو العالم كمقبرة، والناس موتى... ولا يبقى أثر لمناظر العذاب في السجون والمستشفيات. وحتى مَن هم في القصور يحرمون من السلطة والنعم...

الجميع تحت رحمة قانون الليل الشامل، حتى الطغاة الذين لم تلمس ظهورهم الأرض يُطرَحون كالمساكين. أما الصالحون والعباد فيتقربون إلى الله مع كل نفَس من أنفاسهم.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.[١٧٦]

فحقيقة اتصال كل ليلة بصباح تربطنا بأمل الصباح وبفجر مزهر. فيومنا يتحول إلى ليل، وليلنا يتحول إلى نهار وفقًا لقوانين العالم الفاني التي اعتدنا عليها.

١٧٦ المؤمنون، ٨٠.

والغاية العظمى من تعاقبات الليل والنهار هي إدراك الإنسان حقيقة أن "الحياة ليست إلا يومين وليلة". فالحياة بنظرة عامة تتكون من يوم في الدنيا ويوم في الآخرة وليل الموت بينهما، أي إن الدنيا يوم فان، والموت ليلة مؤقتة، والآخرة صباح حقيقة خالدة.

إن النوم نقطة التقاء بين الحياة المادية والحياة الروحية، وكذلك الموت. قال رسول الله ﷺ:

«**القبر أول منازل الآخرة**»،[177] وبذلك أشار إلى أن القبر برزخ يجمع بين خصائص الدنيا والآخرة.

وشبَّه الله تعالى النوم بالموت والاستيقاظ بالبعث إذ قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[178]

والحق أن الإنسان حين ينام تستمر وظائفه الجسدية في العمل، ولكن تتوقف وظائفه الذهنية والحسية، أي يختفي التفكير والشعور. الفرق بين النوم والموت هو أن الروح الحيوانية تبقى في الجسد أثناء النوم، لكن الروح السُلطانية تتركه. وعندما

١٧٧ أحمد، مسند، ١، ٦٣.

١٧٨ الأنعام، ٦٠.

يستيقظ، تعود جميع وظائف الحياة بما في ذلك الذهنية والحسية كما كانت.

لهذا قال النبي ﷺ: «**النوم أخو الموت**».[١٧٩]

وهذا يعني أن الإنسان يمكنه إدراك حقيقة الموت بنومه أكثر من حضوره جنازة غيره.

يقول الله تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[١٨٠]

تُبيِّن هذه الآية أن النوم يحمل في طياته معنى الموت. والليل يغطي الناس بغطاء أسود كما يُكفَّن الميت. وليس المهم إلا أن يكون العبد مع ربه تحت هذا الغطاء.

يقول الله تعالى:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.[١٨١]

١٧٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٦، ٤٠٩/ ٤٤١٦؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٤١٥.

١٨٠ الزمر، ٤٢.

١٨١ الإنسان، ٢٥-٢٦.

لما حضر أبا بكر الموت دعا عمر ﷺ فقال له:

"اتق الله يا عمر، واعلم أن لله ﷻ عملًا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملًا بالليل لا يقبله بالنهار".[١٨٢]

إذا استطاع المؤمن أن يستفيد من الليل كما ينبغي ويذكر الله تعالى فيه، فإن ليله سيكون أشد إشراقًا من نهاره. لكن ليلة بلا هدف ليس فيها إلا النوم هي كالمطر الذي يسقط على الحجر أو البحر أو الصحراء، فهو ضياع لا يُعوَّض.

والاستفادة من الليل تبدأ بـ"الاستغفار". لأن الإنسان يتجه نحو أحواله القبيحة في طبيعته مثل الجهل، والشهوة، والطمع، والكبر، والغرور، والبخل، والغضب، ويعمل المعاصي بجحوده أمام النعم الإلهية. فإذا استطاع المؤمن أن يزيل حجاب الغفلة، فإنه يشعر بثقل الجرائم التي ارتكبها في ضميره، ويستغفر بدموع التوبة.

قال رسول الله ﷺ:

«أنزل الله علي أمانين لأمتي (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة».[١٨٣]

١٨٢ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٣٦.

١٨٣ الترمذي، تفسير، ٨/ ٣٠٨٢.

وليس من طاقتنا أن نشكر الله تعالى على نعمه كما ينبغي وإنْ لم نرتكب ذنبًا. فالاستغفار بعجزنا واجب من واجبات عبوديتنا لله تعالى.

كان رسول الله ﷺ يقلق من عدم شكر الله تعالى كما ينبغي مع أنه معصوم، فكان يقوم الليل بالصلاة حتى تتورم قدماه، وكان قدوةً لأصحابه في إحياء الليالي، ولما سُئِل عن ذلك، قال:

«**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[١٨٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**جدِّدوا إيمانكم**»، قيل يا رسول الله: وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**».[١٨٥]

وقال رسول الله ﷺ: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**».[١٨٦]

فإذا بدأ المؤمن يومه بالتوحيد والذكر، فإن هذا النور الروحاني سيتغلغل في يومه وقلبه، ويحول الأنفاس الأخيرة من حياته إلى وداع مشرق بروحانية التوحيد.

إن الصلوات على النبي في الأسحار لها قيمة عظيمة. فهي وسيلة لمحبة رسول الله ﷺ. يقول الله تعالى في الآية الكريمة التي يبين فيها الواجب الملقى على عاتقنا لتكريم حبيبه وملء قلوبنا بمحبته:

١٨٤ البخاري، تفسير، ٤٨/ ٢؛ مسلم، المنافقين، ٨٢.

١٨٥ أحمد، مسند، ٢، ٣٥٩؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ٢٨٥/ ٧٦٧٥.

١٨٦ مسلم، الجنة، ٨٣.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.[١٨٧]

والذكر في الأسحار، أي أن يكون القلب مع الله، له أهمية كبيرة في إحياء القلب. فالروح تحتاج للغذاء الروحي لتعرف خالقها وتعبده كما يحتاج جسدنا إلى الغذاء المادي. والغذاء الروحي المتمثل في ذكر الله يجب أن يتغلغل في جميع جوانب النفس لإيقاظ المؤمن، كما ينتشر الغذاء المادي في جميع الشعيرات الدموية لاستمرار حياة الجسد.

إن الطريق إلى الموت على إيمان والفوز الكبير بالجنة يكمن في الذكر الدائم. وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال:

"ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل".[١٨٨]

يأتي صباح المعيشة وطلب الرزق بعد ليل أحياه الإنسان بين أهله، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا. إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.[١٨٩]

---

١٨٧ الأحزاب، ٥٦.

١٨٨ البخاري، مناقب، ٢٥.

١٨٩ المزمل، ٦-٨.

وهدوء الليل وسحر مناظره البديعة وأسراره هي مُلكٌ لمن يقضيها في العبادة والتفكر. وقلب الإنسان الذي يحيي الليل يتسع بالصفات السامية سعة الأرض والسماوات ليستقبل تجليات الله العظيمة ويحظى بأسرار معرفة الله.

قيل للحسن البصري رحمه الله: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها؟ قال: "لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم من نوره نورًا".

فمحبي الله يسهرون طوال الليل في معية الله لا يشعرون كيف يمضي الوقت، بل يبلغون الصباح وقد ازداد شوقهم ومحبَّتهم لله.

يقول الله تعالى:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.[١٩٠]

فالذين يدركون هذا السر من أهل القلوب يعلمون أن مَن يهمل الاستفادة من بركة الليل يستيقظ في الصباح متعبًا كسولًا ويفقد بركة النهار. ولا يمكن لمن لا يعرف قيمة الليل أن يجد خير النهار. فمن يرغب في سلامة الصباح عليه أن يستغل ليله استغلالًا حسنًا.

قال رسول الله ﷺ:

«**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**».[١٩١]

١٩٠ السجدة، ١٦.

١٩١ مسلم، الصيام، ٢٠٢-٢٠٣.

«إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم، يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة».[١٩٢]

«إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليَا، أو صلى ركعتين جميعًا، كتبَا في الذاكرين والذاكرات».[١٩٣]

«عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد».[١٩٤]

وقال رسول الله ﷺ أيضًا:

«جاءني جبريل عليه السلام فقال: ... واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل».[١٩٥]

ونصح الصحابي أبو ذر الغفاري رضي الله عنه فقال:

"حجوا حجة لعظام الأمور، صوموا يومًا شديدًا حره لطول النشور، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم".[١٩٦]

---

١٩٢ مسلم، المسافرين، ١٦٦.

١٩٣ أبو داود، التطوع، ١٨/ ١٣٠٩.

١٩٤ الترمذي، الدعوات، ١٠١.

١٩٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ٢٥٢.

١٩٦ أبو نعيم، حلية الأولياء، I، ١٦٥.

إن الحياة الفانية التي تنقضي مع كل يوم وليلة هي لوحة عظيمة من الحِكم والأسرار وتجليات عظمة الله تعالى. وما أشدها من خسارة أن يقضي المؤمن ليله كله في النوم، متجاهلًا الفيوضات الربانية ويجعل الليل أضحية للجمود والسبات. لأننا مسافرون إلى الآخرة، وستُؤخذ منا لذَّات الدنيا الفانية. فإذا عاش الإنسان حياة الدنيا التي تمر كغيمة صيفية غير قلق من الآخرة، فهي غفلة وحماقة عظيمة كمن ينسى أن بعد النهار ليلًا طويلًا.

اللهم لا تجعلنا ضحايا لأهواء أنفسنا في هذا العمر القصير فنقضي الليالي في الغفلة والخسران. اللهم هب لنا نصيبًا من أسرار الليل، واجعل قلوبنا تتنعم بأمطار الفيوضات المعنوية في الليالي!

اللهم اجعلنا نقضي الليالي في نشوة العبادة التي تجلب الراحة للجسد وتوصل الروح إلى الرضا والرحمة في جو من الطمأنينة.

آمين!



الرزق

الرزق

يقول أبو حازم رحمه الله:

"وجدت الدنيا شيئين، فشيئًا هو لي وشيئًا لغيري، فأما ما كان لغيري فلو طلبته بحيلة السماوات والأرض لم أصل إليه، فيمنع رزق غيري مني كما يمنع رزقي من غيري".

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الواضحة فإن الأمر الذي يملأ عقول الناس ويقض مضاجعهم هو مسألة "الرزق".

مع أن الرزق يشكل مركز الثقل في برنامج القدَر. فيبدأ مع خلق الإنسان في رحم أمه ويستمر وفقًا للسجلات في القدر حتى الموت. ومن معاني الموت أنه نقطة نهاية الرزق الدنيوي.

قُدِّرَ الرزق لجميع المخلوقات منذ الأزل، فهو لا يزيد ولا ينقص. وأما اللجوء إلى الأسباب فيعطي نتيجة بقدر ما قد قُدِّر أن يكون سببًا للرزق. لذلك كان رزق المخلوقات كلها على الله تعالى.

يقول الله تعالى:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.[١٩٧]

١٩٧ هود، ٦.

يعطي الله سبحانه وتعالى الرزق لكل مخلوق على حدة. لذلك يرى أهل الله حتى تغريد البلابل على الأغصان نوعًا من الشكر على النعم الإلهية.

يقول أحد أولياء الله لمن يقلق بشأن الرزق:

"أي من هذه المخلوقات الكثيرة يخزن رزقه في مستودع؟ هذه المخلوقات لا تقلق أبدًا بشأن رزقها".

يقول الله تعالى مبيِّنًا أنه يضمن رزق حتى الجرحى والعاجزين الذين لا يستطيعون تأمين رزقهم بأنفسهم:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[١٩٨]

ومن الأمور المهمة التي يجب أن نعرفها عن الرزق هي التفاوت في تقسيمه، غير أن هذا التفاوت ليس تمييزًا، بل هو لضمان نظام المجتمع وتناسقه تناسقًا كاملًا.

إن خزائن كل شيء بيد الله تعالى، وتوزيع الرزق يتم بناءً على معرفة الله بخلقه، أي وفقًا لبرنامج القدر. فعلى المرء أن يعتقد أن الاختلافات في الأحوال المادية بين الناس هي لصالحهم. ولو تُرك نظام الحياة لعقول البشر الضعيفة، ولرغباتهم المتباينة، ولطموحاتهم المتغيرة باستمرار، لما كان هناك سوى الفوضى في الكون.

١٩٨ العنكبوت، ٦٠.

يقول الله تعالى:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.[١٩٩]

فمن أعظم علامات قدرة الله سبحانه وتعالى في الكون توزيع الرزق بين الخلق. تُعَد موائد مختلفة في كل لحظة لكل المخلوقات الطائرة في الهواء، والماشية على الأرض، والسابحة في البحر. وما يتغذى عليه مخلوق غالبًا لا يتغذى عليه الآخر. أي إن طعام الكائنات الحية في الهواء وعلى الأرض وفي الماء يختلف وفقًا لطبيعة الأماكن التي تكون فيها. وتوزيع الرزق توزيعًا مختلفًا لكل هذه المخلوقات التي لا تُعد ولا تُحصى في الكون لَهو عبرة بليغة وحكمة عظيمة وتجل لقدرة الله وعظمته لأصحاب العقول.قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[٢٠٠]

وقال رسول الله ﷺ:

١٩٩ الزخرف، ٣٢.

٢٠٠ الزمر، ٥٢.

«إذا نظر أحدكم إلى مَن فُضِّلَ عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه».[٢٠١]

فراحة البال في الحياة تعتمد على العيش بإيمان أن التقسيم الإلهي الموجود في الكون هو الأفضل لنا. ثمة كثير من الأحوال التي تبدو قهرًا ولكنها في الحقيقة لطف، كالفقر الذي ينتهي بالجنة. وقد تبدو أحوال لطفًا ولكنها في الأصل خيبة مريرة، كالثروة التي تُنفَق على الشهوات. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾.[٢٠٢]

فالتوكل الكامل والتسليم لله في موضوع الرزق وسيلةٌ لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة. والرزق يُقسِّمه الله تعالى، وقد وُضِعَ قبل خلق الإنسان، فعلى الناس أن يعيشوا بتسليم كامل لله تعالى، لكي يتذوقوا لذة الرزق وحلاوة الإيمان بالقضاء والقدر.

إذا ركز العبد كل أهدافه وغاياته على شيء واحد وهو رضا ربه والامتثال لأوامره وكان من العباد الصالحين المخلصين، تكفل الله له برزق السماوات والأرض، ويسَّره لأسباب الرزق، فهو القائل في كتابه الكريم:

٢٠١ البخاري، كتاب الرقاق، ٣٠؛ مسلم، الزهد، ٨.

٢٠٢ طه، ٨١.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.[٢٠٣]

وقال رسول الله ﷺ:

«لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرُزِقتم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا».[٢٠٤]

من القليل أن نجد مخلوقًا يجمع الطعام لفصل الشتاء مثل النمل. فأغلب المخلوقات تجتاز شدة الشتاء وتصل إلى الربيع من غير أي تدبير منها، وهذا واقع يشهده الجميع. فالخالق تعالى لا يترك بعلمه وقدرته أي مخلوق بلا رزق ضمن هذا النظام الإلهي الذي وضعه...

لكن الكسل والبخل والحسد وتجنب الإنجاب وما شابهها من الأحوال المذمومة هي فهم خاطئ ومعوج لمسألة الرزق.

إن الإسلام يعلِّم الإنسان أن رزقه قُدِّر منذ الأزل ولن يزيد أو ينقص. والله الذي خلق الكون منح كلَّ مخلوق حق الحياة مدةً معلومةً وخصَّص له رزقًا في هذه المدة. وحياة الإنسان وحتى أنفاسه ولقماته سُجِّلَت في اللوح المحفوظ. وأُمِر بـ"العمل" وهو من أسباب الرزق، كي يصل إلى رزقه المعلوم. فالعمل وفقًا لأمر

٢٠٣ الطلاق، ٢-٣.

٢٠٤ الترمذي، الزهد، ٣٣؛ ابن ماجه، الزهد، ١٤.

الله واجبنا، أي إن توزيع الرزق المقدر متعلق بالسعي والعمل. وقد قيل: "لا تُقصِّر في التدبير ولا تهتم بالتقدير".

وضع الله تعالى قوانين في الكون مثل "الإرادة، والشروع، والتكليف، والتوكل، والامتحان، والمسؤولية". والخروج عن هذه القوانين هو عصيان لله. فالسعي لتأمين الرزق أمر إلهي كما نهرع إلى الأطباء عند المرض ونتناول الأدوية، ونهرب إلى الطرقات في الكوارث مثل الحرائق والزلازل. وهذا السعي ليس مخالفًا للقدر، بل هو احترام له وعمل وفقًا لأوامر الله، وإلا لما كان للأمر بالسعي والعمل أي معنى أو حكمة. فعدم الامتثال لقانون الأسباب عصيان وذنب.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾.[٢٠٥]

ويقول النبي ﷺ:

«لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».[٢٠٦]

عن ابن الفراسي، أن الفراسي قال لرسول الله ﷺ: أسأل يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ:

---

٢٠٥ النجم، ٣٩.

٢٠٦ البخاري، الزكاة، ٥٠.

«**لا، وإن كنت سائلًا لا بد، فاسأل الصالحين**».[٢٠٧]

وجعل الله تعالى المخلوقات بعضهم وسيلة لرزق بعض. فمِن فضل الله ونعمته أن يجعل المرءَ يرعى الفقراء ويلبي حاجاتهم مخلصًا، ويخصِّص جزءًا من عطايا الله لهم.

الطعام الحلال:

لا بد من التأكيد على أهمية الطعام الحلال، لأن الطعام الحلال المكتسب بطرق مشروعة هو ما يزيد من نور الإنسان وكماله.

يُروَى أن سهلًا بن عبد الله التستري رحمه الله باع شاةً لرجل، فرجع الرجل بالشاة إلى سهل بعد حين وقال:

"خذ شاتك فهي لا تأكل العشب".

فقال سهل: "وكيف عرفت أنها لا تأكل العشب؟"

فقال الرجل: "أخذتها لترعى في حقل فلم تضع في فمها شيئًا هناك".

فقال سهل: "يا رجل، قد أخطأت. عليك أن تعلم أن أكل محاصيل الآخرين ليس من عادة شاتنا. اذهب وأعطِها العشب الذي تشتريه بمالك".

فنفهم من هذه الرواية أن حرص المسلمين على الطعام الحلال كان ينعكس حتى على حيواناتهم في زمن من الأزمان.

٢٠٧ أبو داود، الزكاة، ٢٨.

إن اختيار الرزق الحلال هو نور الحياة، وسرور القلب، وروحانية العبادة وأهم عوامل الوصول إلى القلب السليم. أما الرزق الحرام، فهو سم الحياة، وضيق الصدر والخسران. والذل والمهانة والمصائب في الدنيا والآخرة هي نتائج الرزق الحرام.

المال والغذاء الحلال وسيلةٌ لنيل رضا الله، أما المال والغذاء الحرام، فندامة وخسران لصاحبه. فإذا شغل حبُّ المال والبنين مكان حب الله في القلب، كانت العاقبة أليمة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: "الماء داخل السفينة يُغرِقها، أما تحتها فيرفعها ويجعلها تطفو".

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.[٢٠٨]

وقال رسول الله ﷺ في المال الذي يُستخدَم في الخير:

«نِعمَ المال الصالح للمرء الصالح».[٢٠٩]

المال الحرام عار في الدنيا والآخرة، واللقمة الحلال تغذي الإنسان بالعلم والحكمة، وتوقظ في القلب حب الله والشوق إليه.

لا ينبت القمح في مكان زُرِع فيه الشعير، ولا الشعير في مكان

٢٠٨ فاطر، ١٥.

٢٠٩ أحمد، مسند، ٤، ١٩٧، ٢٠٢.

زُرِعَ فيه القمح، وكذلك المواد الغذائية المادية والمعنوية التي تدخل الجسم، فإذا لم يُغذَّ الجسم بالطعام الحلال الذي يمنح القلب القدرة على معرفة الله، فلا تكون الروحانية والخشوع في العبادات.

فلا بد أن نحصل على غذائنا من الحلال في الدنيا، لأن القوة التي لن تضل العبد عن "الصراط المستقيم"، والتي تزينه بالحكمة والحقائق، وتأخذه من ظلام الدنيا إلى نور الله، لا تكون إلا في الطعام الحلال.

وبين الحلال والحرام يوجد ما يسمى بـ "الشبهات"، يجب تجنبها كما نتجنب الحرام.

قال رسول الله ﷺ:

«إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه، وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه».[٢١٠]

نفقاتنا في الدنيا هي من أجل معيشتنا، لكن يجب تجنب الإسراف، لأن الثروة في الدنيا محدودة، وهي أمانة يجب الحساب

٢١٠ البخاري، الإيمان، ٣٩؛ مسلم، المساقاة، ١٠٧.

عليها في الآخرة. واستخدامها بوحشية وبذخ كما في النظام الرأسمالي الحالي يعرِّض حياة المجتمعات والأجيال القادمة للخطر. الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يشبع بسهولة، أما الحيوان المفترس الذي يهاجم قطيعًا من الأغنام فيفترس على قدر ما يسد جوعه في تلك اللحظة. ولا يستمر في الافتراس بعد أن يشبع قائلًا: "وهذا آكله غدًا!" بل يصبح صديقًا لباقي القطيع.

لكن الإنسان يمتلك شهوة لا حدود لها. وأول شرط لإنقاذه من هذه الشهوة تحذيره من الإسراف مع الاعتقاد بأن الرزق لا يزيد ولا ينقص. يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.[٢١١]

فالتقسيمات الحياتية تكون بإرادة الله، مما يغلق طريق الجشع والطمع لمن يفهم.

إذا أطلنا الأماني والشهوات بإضافة واحدة تلو الأخرى، فيُطلق على هذه السلسلة من الرغبات اسم "طول الأمل". وهذه لا تستمر إلا إلى حدود القبر، فنهايتها الحسرة والندامة. طول الأمل مجموعة من الرغبات الفانية التي تهرب كظل وتغيب كالشمس ولا تنتهي. وعندما يشاهد المرء هذه الحال ببصيرة، فسيرى أنها ليست إلا كومة من الآلام.

٢١١ الحجر، ٢١.

الذنوب تُظلِم القلب. فأحد الأسباب الرئيسية لأمراض القلب المعنوية هو تناول الطعام الحرام. فالتغذية بالطعام الحرام سم معنوي للجسم، وعندئذ لا يمكن تذوق لذة العبادة.

فعلينا أن نكون حذرين في هذا السوق الدنيوي. وعلينا أن نرى أنفاسنا المحدودة أغلى من متاع الدنيا، فلا نفوِّت الفوز الأبدي.

يجب أن نكون مسافرين في طريق الحقيقة والفضيلة نبيع الفاني ونشتري الخالد، نترك الضلال ونختار الهداية.

اللهم ارزقنا برزق حلال طيب، ووفقنا للأعمال الصالحة.

آمين!



النور والظلام

النور والظلام

كان أبو بكر الورَّاق رحمه الله يرسل ابنه إلى المدرسة ليتعلم القرآن الكريم. فرجع ابنه يومًا من المدرسة مرعوبًا شاحب الوجه، فرآه على هذه الحال فسأله: "ما بِك يا ولدي؟"

فقال الولد: "يا أبتاه، قرأنا اليوم في المدرسة قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾[٢١٢] فكلما فكرت في هذا الأمر، رُعِبت ودُهِشت".

وبعد حين توفي ذلك الولد، فكان أبو بكر الورَّاق يكثر من زيارة قبر ولده ويقول في نفسه: "قرأت القرآن الكريم طوال هذه السنوات، فلم أشعر بما شعر به هذا الولد، فيا ويلي على حالي".

كل شيء، حتى الإنسان، ينضج بالتربية ويجد جوهره الأصلي. وفي البنية المعنوية للإنسان بذور مقدسة تركتها القدرة الربانية، وهذه البذور تنتظر التأثيرات الإيمانية والقرآنية لتتبرعم وتُظهِر جمالها.

٢١٢ المزمل، ١٧.

ومهما كانت التربة خصبة، فإنها تحتاج إلى الأمطار المباركة التي تمنحها الحياة. وكذلك الإنسان يغدو مثمرًا اعتمادًا على الفيض والبركة في تربيته الروحية.

قال النبي ﷺ مشيرًا إلى أهمية التربية الدينية في سن مبكرة:

«مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين».[٢١٣]

لأن التوجيه الصادق الذي يُقدَّم للطفل في سن مبكرة يُنقَش في عقله وقلبه كما تُنقَش الكتابة على الحجر. وإذا دخل الإيمان القلبَ كما ينبغي، فإنه يستمر طوال الحياة.

خلق الله الإدراك البشري بطريقة لا يمكنه الوصول إلى الحقيقة إلا بالتناقضات. لذلك من المحال أن نفهم شيئًا في عالمنا بغير نقيضه. يمكننا فهم الخير بالشر، والجمال بالقبح، والصواب بالخطأ، والنور بالظلام. ونستطيع فهم سمو الإيمان بسفالة الكفر. فهذه القيم قائمة على أضدادها.

تدور مغامرة إيمان البشر وكفرهم بين صفتي الله تعالى «الهادي» ونقيضها «المضل». يهدي القرآن الكريم الناس ويحثهم على تجنب الظلام والاتجاه نحو النور. والكون يُعَدُّ تفسيرًا تفصيليًّا للقرآن الكريم المعجز. أي إن القرآن الكريم هو عالَم بالكلمات، والكون هو قرآن بغير كلمات. الكون مزين بآيات تكوينية متعددة

٢١٣ أبو داود، الصلاة، ٢٦.

ويُعرَض ككتاب مليء بأسرار تجليات القدرة الإلهية للعيون المتأملة. والإنسان هو جوهر لتجلي القرآن والكون.

لهذا السبب يرى المتصوفون الإنسان «جوهر العالم» و«العالم الصغير». أي إن الإنسان يميل ويملك القدرة على الخير والشر، والنور والظلام. وتوضح هذه الصفة حكمة إرسال بني آدم إلى هذا العالم من عالم الأرواح بعد تجسيدهم باللحم والدم.

مسؤولية الإنسان في الحياة الدنيا هي أن يجعل النور الذي يمتلكه هبةً إلهيةً وسيلةً ليتغلب بها على الظلام في نفسه. لهذا السبب يمتلئ القرآن الكريم بالأوامر والنواهي التي تهدف إلى جعل النور يتغلب على الظلام في العالم الظاهر والباطن للإنسان وفي المجتمع الذي يعيش فيه.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.[٢١٤]

ويخاطب القلوب الغافلة بقوله:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.[٢١٥]

٢١٤ الحج، ٤٦.

٢١٥ محمد، ٢٤.

إن الذين يستطيعون قراءة صفحات الكون والقرآن بعين التأمل يتعمقون في الفهم والإدراك وتطهير القلب وتزكية النفس، وهذا يؤدي إلى التنوير المعنوي ببركات الفهم الواعي لتجليات القدرة والعظمة الإلهية التي يُظهِرها الله تعالى في العالم الظاهر والباطن.

ولكن في بعض الأحيان يغفل البشر عن الحقائق الإلهية التي جاء بها الأنبياء، فيُحجَب النور بالجهل والمصالح الشخصية والفلسفات المظلمة. ونتيجة للابتعاد عن نور الله وتقديس المتاع الزائل مثل المناصب والثروة والشهرة، تتحول العقول والقلوب إلى مكب للنفايات مليء بالأوهام والخيالات.

عرَّفنا القرآن الكريم بخالق السماوات والأرض، ولفت أنظارنا إلى النور والظلام، فلا يمكن لأي نور أو دليل في العالم الظاهر أو الباطن بآياته الكونية والعلمية أن يكون أكثر إشراقًا أو وضوحًا من البيَان المعجِز للقرآن.

قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾.[٢١٦] فنفهم من ذلك أن عدم معرفة الله هو أشد أنواع العمى.

يوجهنا دين الإسلام إلى متابعة حقائق النور والظلام بجدية وبصيرة في جميع مناحي الحياة، في العقل، والشعور، والجسد،

٢١٦ النور، ٣٥.

والفن، والتجارة، وفي القيادة أو الوظيفة، وفي الغنى أو الفقر، وفي جميع العلاقات الفردية والاجتماعية. ويأمرنا بأن نعيش حياة نورانية ونموت موتًا نورانيًّا.

وفي ظلال القرآن تتميز المعرفة عن الجهل، والحق عن الباطل، والخير عن الشر، والصحة عن المرض، والسلامة عن المصيبة، والعدل عن الظلم، والإيمان عن الكفر، فالأول نور، والثاني الظلام. وفي الحياة الاجتماعية، تكون الحرية مقابل العبودية، والأخلاق الجميلة مقابل الدناءة، والعمل مقابل الكسل، والزواج مقابل الزنا، والرحمة مقابل القسوة، والكرم مقابل البخل، والعفو مقابل الحقد، فالأول نور والثاني ظلام.

الأنبياء وورثتهم من الصالحين والعلماء الذين يحددون النور والظلام ويبيِّنون الموقف البشري الصحيح تجاهها هم نور. ومخالفتهم ومعارضتهم ظلام.

إن صفحات التاريخ تشهد على أن عصور الجاهلية حين زال الحق والعدل، وقبَّح الكفرُ الحياةَ تُعَدُّ زمنًا مظلمًا مرعبًا.

يقول الله تعالى:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.[٢١٧]

٢١٧ التغابن، ٨.

إن الذين يعيشون بعيدًا عن نور القرآن هم رحَّالة في طريق الظلمات. وأطفالنا لا سيما في مرحلة التعليم بحاجة شديدة إلى القرآن الكريم ومعرفة دينهم والتربية الإيمانية والأخلاقية. وإهمال الشباب من حولنا ونحن نربي أولادنا لا يتماشى مع الإيثار الذي يأمر به الإسلام.

ولا ريب أن تلاوة كلام الله تعالى من أعظم العبادات. فالصلاة مثلًا تجوز وإنْ لم يُؤدَّ الركوع والسجود والأركان الأخرى كاملة لعذر شرعي، لكن لا يمكن أن تكون صلاة بلا تلاوة القرآن. ومن الضروري تلاوته بأفضل طريقة ممكنة، فالله تعالى يقول:

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾.[٢١٨]

ومما يفرض علينا تعظيم القرآن الكريم أن قراءته سُنَّة، أما الاستماع إليه ففرض. قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.[٢١٩]

لأن الإنصات يؤدي إلى البصيرة، والبصيرة تؤدي إلى زيادة الفيض ونيل الرحمة الإلهية. وكان رسول الله ﷺ يأمر ابن مسعود رضي الله عنه بتلاوة القرآن الكريم، وينصت إليه بحالة معنوية عظيمة.

---

٢١٨ المزمل، ٤.

٢١٩ الأعراف، ٢٠٤.

طوبى للوالدَين اللذَين يستمعان إلى تلاوة طفلهما لكلام الله ويتأثران بها. نسأل الله تعالى أن يجعل أطفالنا الذين نبذل جهدًا في تربيتهم من عباده الصالحين المخلصين.

لم يكن لسيدنا آدم عليه السلام والدَين، لذلك تجلت المودة في نسله من الأعلى إلى الأسفل. أي إن كل إنسان يشعر بالاحترام وحتى المودة تجاه والديه إلى حد ما، ولكن المودة تجاه الأبناء تتغلب على المودة تجاه الوالدين. وقد وصف الله تعالى المال والبنون الذين لم يوجَّهوا في سبيل الله بأنهم «فتنة»، وإذا كانوا صالحين والأموال تنفق في سبيل الله فإنهم «زينة».

يرغب الإنسان بفطرته في إنجاب الأطفال بسبب الميل الطبيعي للمودة تجاه الأبناء. لكن إذا فكر الإنسان في المسؤولية الكبيرة المترتبة على توجيه الأبناء توجيهًا صحيحًا، فإنه سيشعر بالرهبة.

والنجاح في توجيه الأبناء توجيهًا صحيحًا بما يتوافق مع الغاية من خلق الإنسان وهي معرفة الله وعبادته، يكون فوزًا معنويًّا لا يُقدَّر بثمن.

جميع الصعوبات التي يتحملها الوالدان في سبيل تربية أبنائهم وتأمين معيشتهم تُعد كفَّارةً لذنوبهم وأفضل من الصدقة. إن تربية الأطفال الصالحين تكون حاجزًا بين الوالدين والنار في الآخرة.

الأطفال هم أغلى ثروة لدينا، وهم أكبر نعمة وعطاء من الله لنا. ومن المؤسف أن يتجاهل الناس تربية أبنائهم على نور القرآن،

ونحن نرى النباتات والحيوانات تكافح للحفاظ على نسلها. على الآباء والأمهات أن يهتموا بتزويد أبنائهم بالغذاء الروحي والزينة المعنوية، ولا يكتفوا بالغذاء المادي.

إذا لم يُغرَس في قلوب الأطفال حب الله ورسوله وأهمية الدين كما ينبغي، فإنهم قد يؤدون واجباتهم الدينية بصورة رتيبة وبلا شغف، وربما يتركون الصلاة أو يتهاونون في أدائها دون أن يشعروا بلذتها المعنوية.

فتربية الأبناء في أنوار القرآن والسنة هو من مقتضيات المحبة والرحمة، وإهمال ذلك يعد ظلمًا كبيرًا. علينا أن نبحث عن الإيمان والأخلاق الحميدة فيمن نختارهم شركاء حياة لأبنائنا، لأن الأسر التي لا تُبنى على القيم الدينية والأخلاقية غالبًا ما تنتهي إما بالطلاق أو بحياة مليئة بالمعاناة.

يجب أن نحمي أبناءنا من اللهو والتسكع، والإسراف، والتأخر في العودة إلى المنزل، وتأثير الإعلام الفاسد، ونملأ قلوبهم بحب الله والقرآن والصالحين حتى تكون قلوبهم محمية من الظلام وتنعش بالأنوار الربانية.

عندما تمتلئ القلوب البريئة بحب الله ورسوله، فإن العبادة تؤدَّى بشوق وخشوع، وتزدهر الحياة المعنوية، وتصبح تلاوة القرآن ممتعة، ويغدو الالتزام بأوامره ونواهيه أمرًا طبيعيًّا.

لا بد من حماية العلم حماية دينية وأخلاقية لضمان عدم إساءة استخدامه. فلا يمكن منع الفوضى في المجتمع إلا من خلال التربية على الإيمان والقرآن. والأضرار التي تسببها المعرفة الخالية من الدين والأخلاق في النسيج الاجتماعي واضحة للعيان. ومما نراه كل يوم أن بعضًا من الناس يستخدمون علمهم وسيلةً للهجوم على أسس الدين والأخلاق أو يستغلونها لتحقيق رغباتهم الشخصية. فإهمال التربية الدينية يؤدي إلى المادية، أي الاستغراق في مصالح الدنيا، وهذا من أبرز عوامل الإلحاد وأسسه. المادية ليست فلسفة بل هي ضعف فكري، إنها ليست حكمة بل علة.

وأحد أهم أسباب الإلحاد هو أن بعض الغافلين والمنكرين لا يفهمون حدود صلاحية العقل البشري. فهؤلاء يعجزون عن إدراك بعض المعلومات فيلجؤون إلى إنكارها.

يقول الله تعالى في هؤلاء المنكرين الذين لا يدركون حدودهم ويجهلون جهلهم:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.[٢٢٠]

أما المنكرون فيقولون لمن يريد تحذيرهم: «نحن في عصر العلم، هذه أساطير الأولين!»، وما ذلك إلا لموت قلوبهم.

٢٢٠ يس، ٧٧.

يقول الله تعالى فيهم:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.[٢٢١]

فالمحروم من الدين غافل يظن عجزه قوة وبؤسه سعادة.

وأعظم ميراث يمكن أن نقدمه لأطفالنا هو الجهود التي نبذلها لإنقاذ حياتهم في الآخرة.

يقول الله تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.[٢٢٢]

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.[٢٢٣]

فمن ضعف الإنسان وعجزه أن يمنع أولاده من الالتحاق بدورات تعليم القرآن الكريم قلقًا على مستقبله أو بعض الرغبات الدنيوية، لأن الله هو خالق الكون وهو الوحيد الذي يستطيع أن يحدد المستقبل.

٢٢١ غافر، ٨٣.

٢٢٢ الإسراء، ٨٢.

٢٢٣ المنافقون، ٧.

والتاريخ شاهد على أن الأمم التي تتبع نهج الأنبياء والأولياء والصالحين تزدهر، أما الأمم التي تخالفهم فتفقد كرامتها البشرية وتبيت بائسة.

قال رسول الله ﷺ:

«إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين».[٢٢٤]

علينا أن نذكر دائمًا أن هذا العالم مائدة مفتوحة على تجليات جميع أسماء الله الحسنى، لا سيما اسمَيه «الرحمن» و«الرحيم». فنحن جلسنا إلى هذه المائدة الجميلة بفضل الله، ويجب ألا ننسى أننا سنقوم منها يومًا ما. ولا بد لنا من الامتثال لآداب هذه المائدة.

سيستفيد الصالحون والفاسقون من هذه المائدة المليئة بالعبر، أما الآخرة فهي وعد وحقيقة لا تخطئ. فهنالك سيحكم الخالق القادر على كل شيء.

وأحداث الحياة المليئة بالعبر هي المعلِّم الحقيقي. ومن خلال محاسبة أنفسنا قبل أن نُحاسَب من الله، يجب أن نفكر جيدًا في مسؤوليتنا عن تربية أولادنا وفي وزر الإهمال في هذا الشأن.

لا مفر من يوم الحساب أمام الله تعالى. وقد وصف الله شدة ذلك اليوم في قوله:

٢٢٤ مسلم، المسافرين، ٢٦٩.

﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.[٢٢٥]

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾.[٢٢٦]

لا شك أن أحسن الكلام كلام الله تعالى، وأفضل الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ، وأثمن ميراث هو وضع آمانة القرآن العظيمة في قلوب الأطفال البريئة.

يقول الله تعالى منذرًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.[٢٢٧]

نسأل الله أن يجعل في قلوبنا التقوى والإحسان وأن يرزقنا الرحيل إلى الآخرة بضمائر نقية وقلوب نيِّرة، وأن يجعلنا نعيش في بهجة ربيع القرآن والنور المحمدي الذي يعد بداية السعادة الأبدية في الدنيا، وأن يحلِّينا جميعًا بأخوَّة الإيمان وفيوضات القرآن وأخلاق نبي آخر الزمان... آمين!

٢٢٥ الإنسان، ١٠.

٢٢٦ القيامة، ١٠.

٢٢٧ التحريم، ٦.



واجبنا تجاه

القرآن الكريم

واجبنا تجاه القرآن الكريم

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وأكرمه بميزات فريدة مثل العقل والإدراك والفهم. والنتيجة الطبيعية والمنطقية لهذه الميزات هي «المسؤولية». وأكبر مسؤولية للإنسان، الذي له مكانة فريدة بين المخلوقات، هي أداء واجبات العبادة تجاه ربه أداءً صحيحًا. ومن أكبر نِعم الله وكرمه على الإنسان في هذا العالم أن جعله مخاطبًا للقرآن الكريم. ولكن لا شك أن هذا يزيد من المسؤوليات، لأن كل نعمة تقابلها مسؤولية، وهذا أمر منطقي لا محالة.

إذا كان الإنسان يستطيع أن يفهم معنى هذه النعمة كما ينبغي، فيمكنه أن يرتقي إلى الدرجات المعنوية العليا. لأن فهم شرف أن يكون الإنسان من «أمة محمد» يقتضي إدراك أهمية هذه المسؤولية. لكن الله تعالى الذي جعل الدنيا «عالم امتحان»، جعل الإنسان مصابًا بـ«الغفلة» كي يتحقق هذا الامتحان.

لذلك يقع بعض الناس في تيار الغفلة ويبتعدون عن فيض القرآن وبركته ونعمه، ويتبعون أهواء نفوسهم ورغباتها. أما العباد الصالحون والمخلصون فيتغلبون على نفوسهم، ويتجاوزون المراحل في طريق التوجه إلى الحق.

والحق أننا إذا قارنَّا حال الأمة التي قضت ألف سنة على الأقل من تاريخ الإسلام الممتد لأربعة عشر قرنًا قائدةً في رفع كلمة التوحيد بالإسلام، فإننا أمام مشهد يستلزم مسؤولية كبيرة. لكن في مثل هذا الوقت، يكون للتمسك بالإيمان والعمل الصالح قيمة فريدة عظيمة، لأن الجهد والسعي الذي يُبذَل في وقت ضعف قضية ما، يكون أعظم قيمة وأشد أهمية من الجهد الذي يُبذَل في وقت انتصارها.

والله تعالى سخَّرَ للإنسان الكون بكل ما فيه أمانةً، المال، والبنون، والصحة، كلها يجب أن تُعَد ضمن هذا السياق. والإنسان مكلف باستخدام هذه الأمانات والمحافظة عليها بدقة. وأعظم هذه الأمانات هي القرآن الكريم، الذي أنعم الله به على الناس دليل هداية بواسطة حبيبه محمد ﷺ.

لذلك، ذكر النبي ﷺ القرآن الكريم أولًا بين الأمانات التي تركها لأمته في حجة الوداع. ثم أشهد أصحابه على أنه أدى الأمانة، ثم دعا الله تعالى ثلاث مرات قائلًا: «**اللهم اشهد!**»[٢٢٨]

٢٢٨ انظر: مسلم، الحج، ١٤٧؛ أبو داود، المناسك، ٥٦؛ ابن ماجه، المناسك، ٧٦، ٨٤.

ومهما بلغت قدرة الإنسان على التعبير، فإنها تبقى محدودة. وكل من يملك عقلًا ولغة يستطيع أن يفهمه إلى حد ما. ولكن كلام الله تعالى يتميز بسعة لا حدود لها وعمق لا يمكن بلوغ نهايته، وله لحن أزلي ولذة أبدية لا تنضب. ومهما ارتقت علوم البشر، فإنها لن تصل أبدًا إلى أفق الحقائق الموجودة في القرآن الكريم. لأن القرآن الكريم تجلٍ لكلام الحقائق الإلهية في عالم إدراكنا البشري. وكما أن فهم الذات الإلهية محال، فإن الوصول إلى نهاية الحقائق القرآنية أيضًا محال للإدراك البشري. وما التفاسير والترجمات لتوضيح معاني القرآن الكريم إلا غيض من فيض.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«يمكن كتابة ظاهر القرآن الكريم بكمية من الحبر، أما أسراره فلا تكفي لها البحار والمحيطات».

قال الله تعالى عن أبدية الحقائق القرآنية:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[٢٢٩]

يخضع الكون من أصغر الذرات إلى أكبر المجرات لنظام إلهي محدد. إلا أن الإنسان هو الذي قد يخرج عن هذا النظام والتناغم الكوني بسبب سوء استخدام الإرادة الجزئية التي مُنحَت له.

٢٢٩ لقمان، ٢٧.

والإنسان يفقد توازنه بعدم التمسك بالقرآن، ويسيء إلى كرامته، وينجرف نحو أخطر أنواع الجحود، فتبتلعه دوامات الأهواء والشهوات، ويهلك.

وفي القرآن الكريم مواعظ، وفيه الأوامر والنواهي التي تدعو الإنسان إلى الصواب، وإلى الأخلاق الحميدة، وإلى إدراك العبادة، وإلى السعادة الأبدية.

القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى الجمال في الكون، وإلى تجليات القدرة الإلهية، ويثير في نفس المؤمن الإيمان، ويجعل العبد يرتعد بقلب حساس أمام هذا النظام الإلهي.

ولا ريب القرآن الكريم أُنزِل ليمنح المؤمنين سعادة الدنيا والآخرة. وسعادة الإنسان والمجتمع تتحقق بإدراك الحقائق القرآنية بشعور الإيمان. فالقرآن نور إلهي ينير ظاهر الإنسان وباطنه، وهو موعظة ونصيحة مليئة بالحكم والعبر.

إن الكتب السماوية الأخرى التي أكملت مهامها التاريخية تركت مع مرور الزمن مجال الإرشاد، بإذن الله تعالى، إلى عهدة النبي محمد عليه الصلاة والسلام حتى قيام الساعة. ومع الرسالة العامة والأخيرة للنبي عليه الصلاة والسلام سيستمر جو السعادة والروحانية حتى يوم القيامة، ولن يذوق الناس السعادة والراحة الحقيقية إلا بعيش حقائق القرآن الكريم والحقائق المحمدية.

وآيات القرآن عجائب تضيء ظلمات التاريخ، وتفتح ألغازًا لا تُحَل، وتهب ربيع الدنيا والآخرة. القرآن الكريم يروي لنا قصص الأمم السابقة وأحداثها، ويمنحنا الكثير من العبر والحكم، ويعطينا دروسًا حياتية واجتماعية عظيمة للمستقبل.

القرآن الكريم لقلب المؤمن بابٌ عظيمٌ يفتح على آفاق عالم التأمل. إنه منبع للحكمة الإلهية التي تمنح شفاء للنفوس النازفة وراحة للقلوب المتعبة. وهو مصدر إلهي يقدم لنا حقيقة الموت المخيفة وسيلةً وحيدةً للقاء الله تعالى. والحياة بعيدًا عن القرآن هي انتحار مطلق في عالم الخلود.

والقرآن الكريم أجمل الكلام، لذلك يبلغ جمال صوت الإنسان كماله في تلاوة القرآن. والقلوب التي تتوق إلى الحقيقة قد تكتفي بأي صوت، إلا صوت القرآن فلا تكتفي به أبدًا، بل تطلبه ولا تشبع! ففي كل نغمة من نغماته تتعطر القلوب الرقيقة بنفحات الجنة.

لكن الغافلين الذين يستمعون إلى صوت القرآن ولا يصلون إلى حكمته، يفقدون البركات المطلوبة في حياة الإنسان. فهؤلاء وأمثالهم يركضون وراء ملذات الدنيا الفانية ويفقدون شرف أن يكونوا عبادًا حقيقيين لله تعالى.

والقرآن الكريم ينير ظلمات الموت التي لا يمكن التغلب عليها بأي معرفة أو عقل. وهكذا يجعل الحقيقةَ المخيفة للموت بوابة سعيدة تفتح على عالم لا نهاية له.

يجهل كثير من الغافلين الذين يدفنون أحبائهم في القبور ما يجري تحت التراب، لأنهم ليسوا على دراية بلغة أشجار السرو التي تُظِل القبور. وإذا تلقوا ضربة تحذير بالزلازل والعواصف والمصائب المختلفة، بحثوا عن ملاذ من الكوارث الطبيعية. فما أعجب حال هؤلاء الذين يعيشون في ملك الله، لكنهم إما يعادونه أو يبقون غير مبالين بأوامره.

يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.[٢٣٠]

إن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة. والإنسان الذي يعيش بغير القرآن يشبه قبور بعض الأشقياء التي تكون حفرة من حفر النار. فهو أشبه بقبر متحرك. أما المؤمن الذي يملأ نورُ القرآن قلبَه فيتفكر في الحقائق الكبرى كل لحظة. فكأن الكلام الإلهي يخاطب قلبه:

«أنت عبد الله، تعيش في ملكه، وتُرزَق برزقه، فاغمر نفسك في حكم القرآن وأسراره، وارحل إلى ربك بقلب سليم!»

ينبغي أن يتجاوز توريث المؤمن لأبنائه الماديات الفانية، إذ يجب أن يكون الميراث الحقيقي هو ثروة الأبدية. وينبغي للوالدَين أن يتركا لأولادهما سعادة لا تزول بدلًا من اللذات الفانية، وإلا

٢٣٠ يس، ٧٧.

سيحاسِب الأولادُ آباءهم يوم الحساب على تقصيرهم في ترك هذا الميراث.

لا خطأ يُظلِم حياةَ الإنسان المعنوية أكبر من إهمال القرآن. وقد ذكر النبي محمد ﷺ أن أعظم الذنوب التي ستواجهها أمته هي نسيان ما تعلموه من القرآن. لذا علينا أن نجهِّز أنفسنا وأبناءنا بحب القرآن الكريم الذي نتعلمه ونسعى للعيش به.

إن الحياة تتكون من مرحلتين، الأولى تتعلق بالدنيا والأخرى بالآخرة. والعلوم الدنيوية تفتقر إلى القدرة على إضاءة حياة الآخرة، أما العلوم الدينية فتقدم محتوى يمكنه أن يضمن السعادة والسلام والراحة في الدنيا والآخرة.

وحياة المجتمع الذي يفتقر إلى روحانية القرآن تشبه كابوسًا بعد نهار مظلم. والذي يفخر بمعرفته الدنيوية ويجادل ضد الحقائق القرآنية لا يدرك أن العقل الذي هو أساس العلوم قد خلقه الله تعالى، وأن بريق أفكاره يحدث بإرادة الله تعالى، فحقائق القرآن تحيط به وبعلومه.

أليس من المؤسف أن نبذل جهدًا كبيرًا لتعليم أولادنا لغات أجنبية ونقارن بين المدارس لنختار الأفضل بينها لهم، ونحن نتجاهل- بل ونستخف أحيانًا- بمعاهد تعليم القرآن؟ إن أعظم نجاح هو أن نترك وراءنا جيلًا صالحًا يدعو لنا ويكون سببًا في فوزنا الأبدي بعد الموت.

يشهد التاريخ على أن الأمم ازدهرت على قدر ما اتبعت القرآن الكريم. وحتى المجتمعات التي لا تقبل القرآن، مثل العالم الغربي اليوم، تدين برفاهيتها الدنيوية وراحتها إلى تطبيقها لبعض من المبادئ القرآنية دون علم.

وعلينا ألا ننسى أن السبب في وجود هذا العَالم هو أن يُعرَف الله تعالى كما ينبغي، وأن تستمر الحياة البشرية في ضوء هذه المعرفة. وهذا يتحقق بالإسلام، لذلك يعد استمرار الإسلام حتى يوم القيامة نتيجة طبيعية لهذه الإرادة الإلهية.

وقد تكون تقلبات في سيادة الإسلام على العالم على مر التاريخ، لكن هذا الدين المبين لا يزول أبدًا. فلا يمكن حجب نور الإسلام، مثلما لا يمكن حجب نور الشمس، لأن الله تعالى تكفَّل بهذا الدين. وزوال سيادة الإسلام تمامًا يعني قيام الساعة. أي إذا انتهى الإسلام، انتهت الحياة الدنيا.

ومع ذلك تتجلى الإرادة الإلهية في هذا العالم على شكل «أسباب». ولا شك أن استمرار الإسلام وسيادته مرتبطان ببعض الأسباب. ويتجلى العامل الرئيسي في هذه الأسباب في تمسك المؤمنين بالقرآن الكريم، والتحلي بأخلاقه، والالتزام بهديه.

والعامل الأول للخلاص من كل فترة انقطاع في سبيل الحق والحقيقة هو الجهد المبذول في خدمة القرآن الكريم. عصرنا عصر ذو أهمية كبيرة لمثل هذه العزائم والجهود. والخدمة الرئيسية التي

يمكن أن تضمن نهضة الأمة وعودتها إلى جوهرها في هذا الوقت هي تعزيز الاهتمام بالقرآن الكريم. أما الإهمال في هذا الأمر فيعني تعريض مستقبلنا ومستقبل أجيالنا ومستقبل الأمة بأكملها للخطر.

وعد الله تعالى بأنه سيتم نوره، لكن الله سيحقق وعده بإتمام نوره بأيدي الناس، لذلك علينا جميعًا أن نكون أهلًا لتحقيق هذا الوعد. فربنا سيتم نوره على أي حال، ولكن الذين يتهاونون في هذه الخدمات سيكونون مسؤولين.

ولا يخفى على المسلم العقاب الإلهي الذي نزل على الثلاثة الذين لم يشاركوا في غزوة تبوك على الرغم من مشاركتهم في جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ. أي إن المقدَّر سيتحقق في كل الأحوال، ولكن الذي لا يؤدي المهام المأمور بها في تحقيق ما هو مقدر سيُسأَل عنها.

لذلك لا بد من أن نبذل جهدًا في سبيل سيادة الإسلام، من أجل أن نؤدي المسؤولية الفردية. وماذا يمكن أن يكون أعلى شرفًا للمؤمن من أن يشارك في هذه الخدمة الإيمانية المجيدة؟ لكن من العبث انتظار العون الإلهي بالأمل دون بذل جهد.

لنرسل أطفالنا إلى المساجد ومعاهد تعليم القرآن الكريم، ولا نسمح لأنفسنا بالانخداع بتقدير المنافع الصغيرة والفانية والمصالح الدنيوية بسبب القلق على المستقبل، ونفقد نعمة القرآن الكريم التي منحها الله لنا. يقول الله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[٢٣١]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[٢٣٢]

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.[٢٣٣]

تبيِّن هذه الآيات بوضوح أن القوة الوحيدة التي يمكنها منح الازدهار والمستقبل هي قوة الله سبحانه وتعالى خالق الكون، والحياة الآخرة هي المستقبل الحقيقي، والرضا الإلهي هو الازدهار الحقيقي.

إن الحقائق الموجودة في القرآن الكريم التي تقود الناس إلى السعادة والكمال، وتأخذ الأمم إلى الشرف والعظمة، لا يمكن أن تتغاضى عن الكوارث الكبيرة والعقوبات الثقيلة الناتجة عن إهمالها. فلا ريب أن التصرف بناءً على هذا الفهم هو الواجب الأول لكل مسلم عاقل ذكي.

---

٢٣١ آل عمران، ٢٦.

٢٣٢ آل عمران، ١٨٩.

٢٣٣ المنافقون، ٧.

لا يمكن تصور بؤس أكبر من عداوة القرآن، ولكن الإهمال في خدمته يجعلنا أقرب إلى خانة عداوته. ينجرف الناس اليوم مع تيارات الحداثة السلبية كما تنجرف جذوع الأشجار في السيل، فعلينا أن نبقى ثابتين صامدين. وعلينا أن نسعى جاهدين لتعليم القرآن لأهلنا وأقربائنا ومجتمعنا ونشر نوره وبركته، لحماية أنفسنا من الكفر والإلحاد والتنازلات. يجب أن نتذكر دائمًا حاجتنا إلى القرآن الكريم.

إن العيش مع القرآن بصورة دائمة يجعلنا نلتزم بأوامره ونواهيه ونتحلَّى بأخلاقه، والتصرف عكس ذلك خسارة كبيرة، وتبديد للمستقبل الأبدي مقابل لذائذ فانية.

يقول الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.[٢٣٤]

لا بد أن يُولي معلمو القرآن الكريم اهتمامًا أكبر لطلابهم في زمننا هذا الذي يغلب على الناس الولع بالماديات. يجب أن يكون قلب الطالب مليئًا بمحبة معلمه. ويجب أن تُغمر القلوب الصغيرة بحب الله ورسوله، ويتجلى فيها جمال الإسلام.

في هذا العالم، حيث نحن جميعًا مسافرون دائمون، لا ينبغي لنا أن نجلس وكأننا سنستقر خالدين في هذه الدنيا. فالأجيال

٢٣٤ محمد، ٢٤.

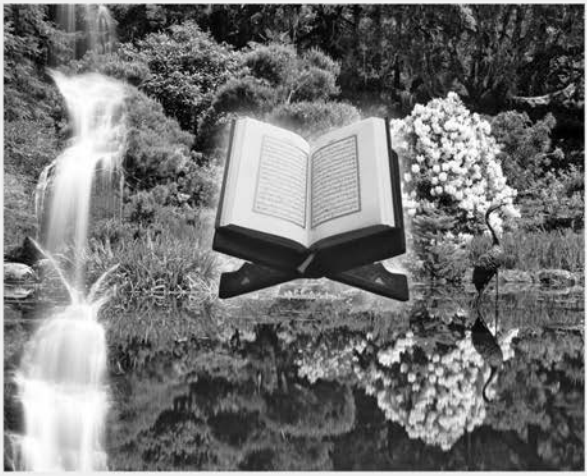
هي قوافل الهجرة إلى الآخرة. والانتقال من هذا العالم إلى عالم الحقيقة هو جوهر الحياة وحقيقتها التي لا مفر منها.

علينا أن نفهم حقيقة أننا في يوم من الأيام سنصبح جزءًا من التراب الذي نسير عليه اليوم، وننظم حياتنا على ضوء هذا الفهم، ولا بد أن ننحني لإيماننا وحبنا العميق للقرآن الكريم. وتقع المسؤولية على الآباء والأمهات في المقام الأول لضمان أن يمتلك الأبناء رؤية ناضجة للحياة وما بعدها. فطوبى لمن يؤدي هذه الخدمة العظيمة تجاه أبنائه والأجيال القادمة، وينال البراءة من المسؤولية تجاه نعمة القرآن الكريم في الميزان الإلهي.

يا رب، اجعلنا من هؤلاء العباد المخلصين!

يا رب، احفظ أمتنا من الفراغ من القرآن، وقلة الإيمان، وزوال الإحسان!

يا رب، هب لنا حياة الجنة في هذا العالم الفاني بفضل القرآن الكريم!...آمين!



الاقتداء
بالقرآن الكريم

إن السعادة الموعودة للإنسان في الدنيا والآخرة لا تتحقق إلا بالامتثال للقرآن الكريم. وكل حقيقة مخفيةٌ في القرآن، وكل سعادة ظاهرةٌ في الإيمان. وأسعد الناس وأحسنهم هم الذين يجتمعون تحت ظلال القرآن، ويستنيرون بنور الحياة فيه، ويصبحون كأنهم قرآن حي.

يقول الله تعالى في وصف النبي ﷺ:

﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.[٢٣٥]

ونفهم هذه الحقيقة بوضوح في قول السيدة عائشة ﵂ عن خلق رسول الله ﷺ: «كان خُلقه القرآن».[٢٣٦]

ويقول المفسرون في قول الله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[٢٣٧] «خلق الله الإنسان ليعلِّمه القرآن، وعلَّمه البيان ليتمكن من فهم القرآن».

٢٣٥ القلم، ٨.

٢٣٦ مسلم، الصلاة، ٧٤٦.

٢٣٧ الرحمن، ١-٤.

فالله تعالى بدأ بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان، وهذا يدل على أن الحكمة من خلق الإنسان هي الدين والعلم، وأنه علينا أن نفهم مسؤوليتنا تجاه القرآن.

القرآن الكريم هو أكبر تجلٍّ لرحمة الله بالناس، وهو نعمة عظيمة لا يمكن وصفها بكلمات. إنه الترجمان الأكمل والأصح لقوانين الإنسان والكون. إنه دليل الهداية الوحيد الذي نزل من اللوح المحفوظ.

القرآن يدعونا إلى التأمل، ويوقظنا من الغفلة للتفكر. ويجيب عن تساؤلات «ما الإنسان؟ ومن أين جاء؟ وكيف بدأ وجوده؟ ومن علَّمه دقائِق القرآن والبيان؟»

وأحد أعظم بركات القرآن هو أنه يوقظ الإنسان من داخله، ويقوده إلى محبة ربه.

يدعو الله الإنسان في القرآن للتأمل في الأسئلة التالية: «ما هذا الكون؟ لماذا جئت إلى هذه الدنيا؟ ما حقيقة الأيام الفانية في تقويم العمر؟ ما الحكمة من الموت والألغاز تحت التراب؟ مَن أنا؟ كيف يجب أن أعيش؟ وكيف يجب أن أموت؟»

فالمؤمن يجد الأجوبة عن هذه الأسئلة ويستعد لدار الخلود في رضا الله تعالى.

القرآن الكريم كتاب الله الذي نزل على قلب محمد ﷺ ليُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، ويعلِّم المسلم أن يعيش وفق القرآن،

ويتخلق بأخلاقه، ويموت على الإيمان. إنه دليل الحياة، ومصدر راحة القلوب، وشمس السعادة الأبدية، وكنز البركات.

مرَّ عمر بن الخطاب ﷺ بجانب بيت فسمع صاحب البيت يقرأ سورة الطور بصوت عالٍ. ولما وصل إلى الآية: ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ**﴾[٢٣٨] نزل عمر من راحلته واتكأ على الجدار لبعض الوقت يستمعُ. ثم أثَّر فيه الوعيد في الآية تأثيرًا عظيمًا أمرضه فمكث على سريره حينًا.

ومما يجعلنا نتفكر ونتدبر أن عمرًا ﷺ تعلمَ البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورًا.[٢٣٩] لأن قراءته للقرآن لم تكن مجرد تلاوة للألفاظ، بل كانت قراءة تفهم وتدبر في الحكم والأسرار الإلهية. والاستفادة الحقيقية من القرآن لا تكون إلا بهذا النوع من القراءة.

فالقلوب تتشكل بقدر ما تتشرب من القرآن، وبقدر إخلاصها تتلقى منه. ويختلف هذا النصيب من شخص لآخر، فقد يكون قليلًا أو معتدلًا أو كثيرًا وفقًا لسمو قلب صاحبه.

إن القرآن، الذي يؤثر حتى في الكائنات الأخرى يكشف عن أسراره لمن تحرر من الأنانية وامتزج بالنورانية. فلا بد أن يكون القلب حيًّا بالقرآن لكي ينال لطفه وأسراره.

٢٣٨ الطور، ٧-٨.

٢٣٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ٣٤٦.

ولكي يصبح الإنسان قرآنًا حيًّا، يجب أن يتعلم القرآن بأفضل طريقة ويعيشه. وهذا يبدأ بدخول جو علم القرآن، والغوص في بحره المليء بالحِكم، والاعتبار بقصصه، والتغذي من مائدة معرفته، والتوجه إلى أفق الإحسان، والتمسك بسلاح الصبر أمام المصائب، والاستسلام لرضا القضاء الإلهي، والتشبع من ينبوع التسليم، وارتداء ثوب التضحية، والدخول في قصر المحبة، والتمسك بنهج التوصية بالحق والصبر، وجعل الإنفاق طبعًا أصيلًا، والثبات على الأعمال الصالحة.

فالقلب يصبح حديقة ورود بلا أشواك لينال محبة الله. والذي ينجح في ذلك، أي الذي يصبح قرآنًا حيًّا، يصبح عالِمًا عاملًا، وحكيمًا بليغًا، فينضم إلى قافلة العارفين والصالحين والزاهدين والعاشقين والصادقين.

إن تسليط نور القرآن على كل جانب من جوانب حياتنا وتلقي قلوبنا من كوثره والتوجه نحو الأبدية هو الوسيلة الوحيدة لسعادتنا الأبدية.

ثمة أناس كثيرون لم يشغلوا ألسنتهم وقلوبهم بشيء سوى القرآن، وكانوا يطلبون كل ما يريدونه بقراءة آية من القرآن، وكذلك يجيبون عن كل ما يُسألون بقراءة آية منه، وكانوا مدركين للَّفظ والمعنى. فقد روى عبد الله بن المبارك حال امرأة تحمل هذه الصفات المليئة بالعبر والحكم، فقال:

بينما أنا في الطريق إذ رأيت عجوزًا عليها درع من صوف خمار فقلت: السلام عليك ورحمة الله فقالت: (سلام قولًا من رب رحيم)، فقلت: ماذا تصنعين في هذا المكان؟ قالت: (من يضلل الله فلا هادي له)، فقلت في نفسي إنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: إلى أين تريدين؟ فقالت: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)، فقلت إنها قضت حجتها وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنت منذ كم في هذا المكان؟ فقالت: (ثلاث ليال سويًّا)، فقلت: ما أرى معك طعامًا تأكلين؟ قالت: (هو يطعمني ويسقين)، فقلت هل معك ماء تتوضئين؟ فقالت: (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدًا طيبًا).

فقلت لها: لمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك؟ قالت: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)، فقلت: مِن أي الناس أنت؟ قالت: (ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع البصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا)، فقلت: هل أخطأت فاجعليني في حل؟ قالت: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)، فقلت هل لك أن أحملك على ناقتي فتدركي القافلة؟ فقالت: (وما تفعلوا من خير يعلمه الله)، قال: فأنخت ناقتي فقالت: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)، فأغمضت عيني عنها، فقلت لها اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فتمزق ثوبها فقالت: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)، فقلت لها اصبري فقالت: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين).

قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت: (واقصد في مشيك واغضض من صوتك)، فجعلت أمشي رويدًا رويدًا وأترنم الشعر فقالت: (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن)، فقلت لها: لقد أوتيت خيرًا كثيرًا قالت: (وما يذكَّر إلا أولوا الألباب). فلما مشيت قليلًا قلت ألك زوج؟ قالت: (يا أيها الذين أمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، فسكتُّ فلم أكلمها حتى أدركت القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فما لك فيها؟ قالت: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)، فعلمت أن لها أولادًا، فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: (وعلامات وبالنجم هم يهتدون)، فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بهم القباب والعمارات.

فقلت: هذه القباب فما لك فيها؟ قالت: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، (وكلم الله موسى تكليمًا)، (يا يحيى..) فإذا بشبان كأنهم الأقمار واستقر بهم الجلوس. قالت: (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعامًا فليأتكم برزق منه)، فمضى أحدهم فاشترى طعامًا فقدَّموه بين يدي، فقالت: (كلوا واشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية)، قلت: الآن طعامكم عليَّ حرام حتى تخبروني بأمرها، قالوا: هذه أمُّنا تحج كل عام، لها أربعون سنة لا تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن.

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال: "لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله"، فأشار بذلك إلى أن المؤمن الذي يكون قرآنًا حيًّا

ينال بركات لا حصر لها من هذا الكتاب العظيم، لذلك يجب أن تكون الحياة والقرآن متداخلين لا ينفصلان.

فالقرآن مليء بالعلم اللامحدود والأسرار والحكمة والمعرفة، كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[٢٤٠]

القرآن مفتاح لا يعسر عليه فتح أي باب، وهو رحمة لا مثيل لها. والإنسان لا يمكنه الحفاظ على جوهره إلا في جو القرآن الرفيع. وبالقرآن يمكن للإنسان أن يدرك تجليات قدرة الله في الكون، ويصل إلى مرضاة الله بفضل الرقة القلبية والبصيرة.

فالقرآن مدرسة مقدسة تُعلِّم الإنسان كل واجب عظيم. إنه كتاب الحق الذي يُظهِر للإنسان الحكمة والجواهر الإلهية في خلقه، ويساهم في تجلي الجمال الإلهي فيه. فالذي يخضع لما جاء فيه خضوعًا تامًّا يخصص عقله لحقائق الإيمان، وقلبه للمناظر القدسية، ونفسه للسلوك الحميد، وأعضاءه للأعمال الصالحة، فيصبح حقًّا قرآنًا حيًّا. وبذلك يعيش في مناخ القرآن، ويصبح كالشجرة الكبيرة المختبئة في البذرة، والمجرة الكبيرة المختبئة في الذرة، والفرد الذي يحتوي على المجتمع، ويصل إلى مرتبة أسمى

٢٤٠ لقمان، ٢٧.

من الملائكة، لأنه تشبَّع بأخلاق القرآن، وتحلى بالأخلاق التي يرضى عنها الله ورسوله.

وينبغي هنا أن نوضح أن تمسك المسلم بكتاب الله وتحوله إلى قرآن حي لا يعني تجاهله الأحاديث النبوية الشريفة والسنة النبوية، بل عليه العيش بالكتاب والسنة معًا. فالله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.[٢٤١]

فالتقليل من شأن السنة أو تركها والاقتصار على الفرائض مخالف لروح القرآن، لأن الالتزام بالسنة يعين في إتمام الفرائض، وهي زينة العبادات وجمالها، وتؤثر في قبولها. علينا أن نذكر أن الإسلام قدَّم للبشر مصدرين من النور: القرآن الكريم، وسنة النبي محمد ﷺ.

فيا رب، زين قلوبنا بعلم القرآن الكريم وحكمته ونوره وسروره، واجعلنا من الذين يعيشون الإسلام مثل قرآن حي، ومن عشاق النبي ﷺ...آمين!

٢٤١ الحشر، ٧.

المراجع العربية

١. القرآن الكريم.

٢. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، المصنف، تحقيق: سعيد محمد اللحام، بيروت، ١٩٨٩.

٣. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي، الوفا بأحوال المصطفى، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦.

٤. بحر الدموع، دار الفجر للتراث، ٢٠٠٤.

٥. ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البُستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ.

٦. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، مصر، ١٣٧٩هـ.

٧. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الصادر، ١٩٦٨.

٨. ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، القاهرة، ١٤١٩هـ.

٩. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن زياد ماجة القزويني، السنن، الناشر: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

١٠. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، بيروت، المكتبة العصرية.

١١. أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مصر، السعادة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٢. أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله، مسند، القاهرة، مؤسسة قرطبة.

١٣. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

١٤. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

١٥. البيهقي، أحمد بن حسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبو بكر، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العالي عبد الحميد حميد- مختار أحمد الندوي، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣/ ٢٠٠٣.

١٦. الترمذي، أبو عيسى محمد بن سورة بن موسى بن الضحاك، السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر- محمد فؤاد عبد الباقي- إبراهيم عطوة عوض، مصر، مكتبة مصطفى البابي، ١٣٩٥/ ١٩٧٥.

١٧. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١/ ١٩٩٠.

١٨. الدارمي، أبو محمد بعد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي، دار المغني، ٢٠٠٠.

١٩. الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، الفردوس بميسور الخطاب، بيروت، ١٩٨٦.

٢٠. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، الخصائص الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية.

٢١. الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، جـ١-٢٥، ١٩٨٣؛ المعجم الأوسط، جـ١-١٠، القاهرة، ١٤١٥.

٢٢. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة.

٢٣. القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر، ١٩٨٨.

٢٤. القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، المواهب اللدنية، مصر، ١٢٨١.

٢٥. القرطبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبو بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، ١٩٨٥.

٢٦. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المجتبى من السنن (السنن الصغرى)، حلب، ١٩٨٦.

٢٧. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢ هـ.

٢٨. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤/ ١٩٩٤.

٢٩. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، الصحيح، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

فهرس

مقدمة ٥

السر في المحبة ١١

جذع النخلة الباكي ٣١

الإنسان الكامل ٤١

الاستقامة ٥٣

صحبة الصالحين والصادقين ٦٥

الروح والجسد ٧٧

الإيمان والامتحان ٩٣

الإخلاص ١٠٧

الخوف والرجاء ١٢١

الغفلة ١٣٣

الطمع والحسد والقناعة ١٤٧

كبت الغضب ١٥٩

الحياة والموت ١٦٧

تجميل الموت ١٧٩

سر الليل ١٩٥
الرزق ٢١١
النور والظلام ٢٢٥
واجبنا تجاه القرآن الكريم ٢٣٩
الاقتداء بالقرآن الكريم ٢٥٣
المراجع العربية ٢٦٣